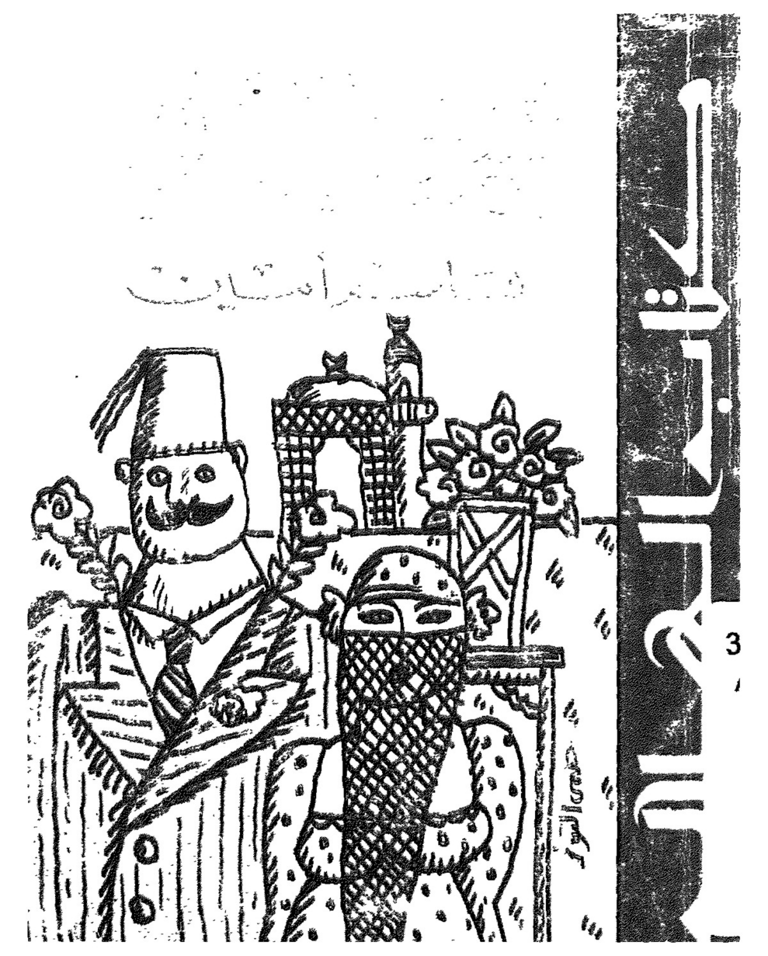


اهداءات ٢٠٠١

المهندس/ محمد عبد السلام العمرى
الإسكندرية



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة:

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
1995 NO _ 537 _ Se
العدد ٥٣٧ - ربيع ثانى ١٤١٦ - سبتمبر ١٩٩٥
فاكس FAX 3625469

أسعار بيع العدد فئة ٢٥٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٠٠٠ فلس - السعودية ١٠ ريالات - تونس ٢.٥ دينار - المغرب ٣٠ درهما - البحرين ١.٢٠٠ دينار - الدوحة ١٢ ريالا - دبى /أبوظبى ١٢ درهما - مسقط ١.٢٠٠ ريال - غزة والضفة والقدس ٢ دولار - لندن ٢ جك .

المصريون

بقلم :
قاسم أمين

دار الهلال

الـغــلاف تصمـيـم
الفنان حلمى التونى

كلمة من المترجم

منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي قامت مجادلات صاخبة بين كُتَّاب الغرب وكُتَّاب الشرق ، فعندما ألقى "رينان" محاضرة في جامعة السوربون عن "الإسلام والعلم" سلب فيها الإسلام من كل ميزة علمية ، وزعم أن كل العلماء الذين ظهروا كانوا من الفرس أو من النصارى أو من غير العرب باختصار ، رد عليه جمال الدين الافغانى ردا مفحما تساءل فيه : "هل مصدر الشر من الديانة الإسلامية أم مصدره من أخلاق الشعوب التى اعتنقت الإسلام" ؟ واختتم رده بقوله : "إن ماحدث فى الإسلام ، حدث مثله فى الأديان الأخرى ، ولا يزال بعض رؤساء الكنيسة الكاثوليكية يحاربون العلم والفلسفة حتى الآن" ..!

وعندما نشر "هانوتو" هجومه على الإسلام وقارن بين المسيحية وبين الإسلام ، ودافع عن نظرية "التثليث" فى النصرانية وزعم بأنها ترفع مرتبة الإنسان وتقربه من الذات الالهية ، وهاجم نظرية "التوحيد" فى الإسلام وادعى بأنها تؤدى إلى ضعف

الإنسان ، وقال : بأن المسيحية تدعو إلى حرية إرادة الإنسان فتدفعه الى العمل ، فى حين أن عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر تحملهم على الاستكانة والجمود .. عندما نشر هذا الهجوم بادر الشيخ محمد عبده بالرد عليه فى سلسلة مقالات نشرها فى جريدة المؤيد ، اظهر فيها اخطاء "هانوتو" فى فهمه للإسلام وفى انه لم يدع الى "الجبرية" ، وذكر ما جاء فى القرآن مما يثبت حرية إرادة الإنسان فى اربع وستين أية .. ثم ألف كتابه المشهور عن "الإسلام بين العلم والمدنية" .

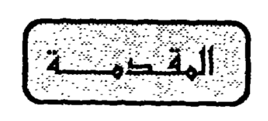
ثم جاء الدوق "داركور" ونشر كتابه عن مصر والمصريين وملأه بمزاعم باطلة ومطاعن على الإسلام والمسلمين ، فانبرى له قاسم أمين ورد عليه بكتاب ألفه بالفرنسية اسماه "المصريون" رد فيه على كل ما احتواه من مطاعن ومزاعم تمس الإسلام وتحقر من شأن مصر والمصريين .

اشتهر قاسم على أنه محرر المرأة ، ولكن الكثير لا يعرف شيئا عن أسرار حياته .. عن اتصاله بجمال الدين الافغانى وعن صداقته لمحمد عبده وعن تاريخه كقاض وعن اشتراكه فى إنشاء الجمعيات الخيرية وعن جهده الكبير فى إنشاء الجامعة المصرية .

ولاشك في ان الجيل الحالى لا يعرف كثيرا عما لاقى قاسم من عنت واتهام وصل إلى حد أنه تردد فى وقته أن مؤلفاته لم تكن من وضعه ولا بأسلوبه ، وامتد الجدل فى هذه الناحية إلى الوطن العربى كله من مصر إلى العراق إلى الشام .. سيكون هذا كله موضوع كتاب أقوم بالعمل فيه الآن وأرجو أن ألم فيه بكل تلك النواحي ونواح أخرى قد يكون لى بها علم وبتفصيلاتها أكثر ممن تفضلوا وسبقونى بالكتابة عن قاسم وسيرته .

إن أغلب الناس تعرف قاسم على أنه صاحب كتاب "تحرير المرأة" ومؤلف كتاب "المرأة الجديدة" وكتاب "اسباب ونتائج" وقرأوا له بعض كلماته المأثورة التى جمعها ونشرها استاذ الجيل لطفى السيد فى كتيب صغير تحت عنوان "كلمات لقاسم أمين" ، ولكن أغلب ظنى أن أحدا لم يطلع على كتابه بالفرنسية فى الرد على الدوق داركور لأنه لم يطبع الا مرة واحدة ولأنه لم يترجم إلى العربية قبل الآن .. واستاذنا الكبير لطفى السيد رحمه الله هو الذى اوحى إلىّ بترجمته عندما كنت فى زيارة له قبيل وفاته وقال : لعل فى نشر هذا التراث فائدة تعود على قراء الجيل الجديد لما فيها من أسوة صالحة من سلف صالح .

قاسم أمين
الحفيد



في هذه السطور القليلة رد مختصر على الأفكار التي سجلها الدوق داركور عن المصريين .. ولم استطع نقل كل التفصيلات المضللة التي وردت في كتابه لأن هذا للأسف يتطلب وقتا . وحتى إذا وجدته فإني لن استطيع إلا أن أضع تفسيرات على هامش كتابه . وأني حريص ان أفند القواعد العامة التي اراد بها تفسير ما اورده من وقائع . ولا يهمني أن تكون بلادى الآن في حالة تأخر ، فكما مرت أوربا بهذا التأخر فمصر أيضا سوف تمر به ، ولكن الذى لا اقره عليه هو قوله : "بأنه مقضى علينا بأن نستمر ولن نخرج من هذه الحالة المنحطة أبدا" . وإننى وأنا أعترف بالعيوب سأحاول أن أجد لها تفسيرا ومبررا .

وأطلب المعذرة من أخوانى الأوربيين إذا كنت قد هاجمتهم في بعض الأحيان ، وإني أؤكد أن هذا لم يقلل من تقديرى لهم .. ولكن كان يجب عليّ أن أقارن بين العادات فأظهر الحسن منها والسيىء .

وأنى أرجوهم على كل حال ألّا ينكروا عليّ حسن النية المطلق وألّا يظنوا إلا أننى ما قلت شيئا إلا وأنا

مقتنع به ، وأخيرا فإني اقدم اعتذارى عن عجز يجدونه في اسلوب الأجنبى الذى لا يطمع فى شىء إلا أن يعبر فى صراحة ووضوح عن أفكاره .

قاسـم أميـن

قاسم أمين (١٨٦٣ - ١٩٠٨) مفكر اجتماعى ينتمى إلى جيل فريد من المثقفين المصريين تلقى تعليمه فى أواخر عهد اسماعيل ومطلع عهد توفيق ، وتفتح وعيه السياسى والاجتماعى فى عهد الاحتلال البريطانى ، تربى على الثقافة الإسلامية التقليدية ، بقدر ما تربى على فكر رفاعة الطهطاوى الذى صاغ نظام التعليم فى ذلك العهد ، وكان كتابه "مناهج الألباب المصرية" كتاب قراءة فى المدارس التجهيزية (الثانوية) التى تعلم فيها قاسم أمين ، كما نهل من الثقافة الأوروبية سواء فى المدارس المصرية أو فى جامعة مونبلييه بفرنسا التى درس فيها الحقوق (١٨٨١ - ١٨٨٥) ، فامتزج فى تكوينه الثقافى الموروث الإسلامى بالمكتسب الغربى ليخرج لنا قاسم أمين فكرا وطنيا يعبر عن رؤيته للنهضة التى يتمناها لبلاده حتى تنفض عن نفسها غبار التخلف وتلحق بركب العصر دون أن تفقد هويتها الثقافية وخصوصيتها المستمدة من تراثها العريق .

ورغم اشتغال قاسم أمين بالقضاء بعد العودة

للوطن ، ظلت القضايا الاجتماعية تمثل هاجسه الأساسى الذى عبر عنه فى العديد من المقالات التى كان ينشرها بالصحف من حين لآخر ، والتى جمعت بعد وفاته فى كتابين أحدهما بعنوان : "أسباب ونتائج" ، والآخـر بعنوان : "كلمـات" ، وهما يتضمنان نظرات ثاقبة فى المجتمع المصرى والمجتمع الأوربى ، وما يمكن أن يستفاد به للنهوض بمصر دون مسخ هويتها الثقافية ، فتتخلص مصر من التخلف الاجتماعى لا عن طريق التقليد وتبنى النموذج الأوربى الذى كانت لقاسم أمين عليه ملاحظات وتحفظات ، وإنما عن طريق استلهام روح الإسلام ، وما اشتمل عليه من قيم وأخلاق لتنقية عاداتنا الاجتماعية واصلاح نظامنا الاجتماعى ، والتخلص من الشوائب التى جرتنا إلى وهدة التخلف .

وهكذا كان قاسم أمين يعبر عن ضمير المثقف المسلم والمصرى الذى يفهم التراث فهما جيدا ، ويسعى لتحقيق الاصلاح الاجتماعى الذى يتماشى مع أسس التراث فى جوانبه الايجابية ، ويسعى للتخلص من السلبيات التى تعوق حركة المجتمع وتمنعه من مواكبة التطور الحديث . ومن ثم كانت الدعوات الاصلاحية التى نادى بها قاسم أمين ، ومن بينها الدعوة إلى تحرير المرأة بتعليمها وتهذيبها

وتدريبها على إعداد المواطن الصالح ، ومن بينها أيضا الانتقادات الكثيرة التى وجهها قاسم أمين فى مقالاته لبعض الظواهر الاجتماعية السلبية . كما كان قاسم أمين حريصا على الذود عن الإسلام والثقافة الإسلامية ، عندما رأى بعض كُتّاب الغرب يتطاولون عليهما بسبب قصور فى الفهم أحيانا ، وسوء النوايا أحيانا أخرى ، وجاء رده على كتاب دوق داركور فى هذا السياق .



ولم يكن كتاب دوق داركور Duc d'harcourt عن "مصر والمصريين" الذى أرجع تخلف مصر الاجتماعى إلى الإسلام والثقافة الإسلامية ، إلا تعبيرا عن إشكالية رؤية الغرب للإسلام ، ونقصد بالغرب هنا أوروبا ، فلم تأت رؤية كُتّاب أمريكا للإسلام فيما بعد إلا بمثابة رجع الصدى لرؤية الكُتّاب الأوربيين .

لم يحاول الأوربيون فهم الإسلام إلا فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى ، بعدما بلغت العلاقة بين دار الإسلام وأوربا حد الأزمة البالغة الحدة فى الحروب الصليبية ، عندما أدرج الأوربيون ضرورة الكف عن موقف انكار الإسلام وعدم الاكتراث به باعتباره هرطقة من الهرطقات على نحو ما فعل أسلافهم ، فترجم القرآن إلى اللاتينية بمساعدة بعض

الإسبان الذين عايشوا المسلمين بالأندلس ، وبدأ التعرف على المجتمع الإسلامي من خلال الكيانات الصليبية التى قامت فى الشرق العربى الإسلامى ، ولما كانت الظروف ظروف صدام وعداء ، فإن فكرة الأوربيين عن الإسلام والمسلمين جاءت مشبعة بروح صليبية تنضح بالكراهية ، ولم لا وقد بدا ـ عندئذ ـ وكأن أوربا آخذة في التآكل أمام الزحف الإسلامى ؛ فقد بتر السلاجقة نصف الامبراطورية البيزنطية باستيلائهم على الأناضول وتحويلها إلى أرض إسلامية ، كما كان الوجود الإسلامى فى جزر البحر المتوسط ـ وخاصة صقلية ـ قد حول البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية ، اضافة إلى الوجود الإسلامى فى الأندلس الذى استمر حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى .

غير أن الأوربيين لم يحاولوا فهم سر القوة المحركة للإسلام والباعثة للثقافة الإسلامية رغم أنهم كانوا عندئذ ينهلون العلم من الكتب التى ألفها علماء ينتسبون إلى تلك الثقافة ، فقد ظلت كتب الرازى وابن سينا وابن رشد تدرس فى الجامعات ومعاهد العلم الأوربية حتى القرن السابع عشر الميلادى . وغلبت على الأوربيين كراهيتهم للإسلام والمسلمين ، فاعتبر بعض كتابهم أن دور المسلمين الثقافى لم يتجاوز حد نقل التراث اليونانى ـ الرومانى إلى الأوربيين ،

وأغفلوا تماما المساهمة الإسلامية فى الثقافة والعلوم اغفال الحاقد الذى لا يعترف بالفضل لأهله .

وعندما دارت عجلة الزمن ، وحل القرن التاسع عشر ، ووجدت أوروبا نفسها تهيمن على البلاد التى كونت دار الإسلام من جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) فى أقصى الشرق ، إلى شمال افريقيا (المغرب) بعد تصفية الوجود الإسلامى فى الأندلس وجزر البحر المتوسط ، تعددت كتابات الأوربيين التى عللت السيطرة الاستعمارية الأوربية بسمو الثقافة الأوربية المسيحية ، وتميزها على الثقافة الشرقية الإسلامية المتخلفة ، وعندما تعرضوا للمجتمعات الإسلامية الشرقية بالدراسة أرجعوا تخلف تلك المجتمعات (مقارنة بما بلغته أوربا عندئذ من تقدم) إلى الإسلام كدين ونظام حياة ، ولعل أبرزها القول بمجافاة الإسلام للعلم والعمل معا بحكم ايمان المسلمين بالقضاء والقدر واتجاههم إلى التواكل .

ودخل حلبة الرد على افتراءات كُتَّاب أوربا ضد الإسلام عدد من المفكرين المسلمين من بينهم جمال الدين الأفغانى الذى رد على "رينان" الذى كان قد ألقى محاضرة فى السوربون عن الإسلام والعلم سلب فيها العرب والمسلمين كل ما لهم من رصيد علمى ، كما رد تلميذه محمد عبده على "هانوتو" عندما نشر مقالا عن الإسلام قارن فيه بين المدنية المسيحية

والإسلامية زعم فيه أن ايمان المسلمين بالقضاء والقدر حملهم على الجمود والتخلف . وما كتاب دوق داركور عن "مصر والمصريين" إلا واحدا من تلك الكتابات التى تعكس استعلاء الأوربيين فى القرن التاسع عشر على الإسلام والثقافة الإسلامية ، ونظرتهم المتدنية إلى المجتمعات الإسلامية تأثرا بما تحقق من سيطرة أوربا على العالم الإسلامى فى عصر المد الاستعمارى .



ودوق داركور نبيل فرنسى ينتمى إلى أسرة أرستقراطية ذات أصول نورمانية تمتد جذورها إلى القرن الخامس عشر الميلادى ، جاء الى مصر سائحا ثلاث مرات ، ثم نشر كتابه عن "مصر والمصريين" عام ١٨٩٣ الذى أثار أشجان قاسم أمين وحفزه للرد عليه فى الكتاب الذى نقدمه اليوم للقارىء الكريم ، والذى ترجمه الاستاذ قاسم أمين الحفيد وفاءً لتراث جده العظيم .

• لاحظ داركور - فى كتابه - أن مصر لا تتمتع بروح قومية مصرية صميمة نتيجة ذوبانها فى كيان إسلامى غير محدد المعالم ، وأرجع ذلك إلى أن المجد الفرعونى القديم لم يعد له أثر نتيجة خضوع مصر المتصل للحكم الأجنبى وخاصة حكم المماليك الذى

ذهبت ببقايا الروح القومية المصرية ، مما أوجد فجوة بين الحكام والمحكومين استمرت حتى أيام اسماعيل التى أدت إلى خراب البلاد نتيجة الاسراف والتبذير .

ونعى داركور على الفلاحين حياتهم البائسة التى جعلتهم يقبلون العيش عند منزلة تقل عن منزلة العبيد ، يكدون ويكدحون من أجل صاحب الأرض ، مما جعلهم يتمرسون على الخنوع ويفقدون الحس الوطنى . وعندما انتقل الى الحديث عن الجيش المصرى رمى المصريين باهمال التربية العسكرية التى لم تتوافر لديهم الخبرة بها لكونهم فلاحين محدودى الطموح يفتقرون الى روح المغامرة ، مما جعل الانجليز يحرزون نصرا سهلا على الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى . وفى الفصل الذى تناول فيه بالحديث الطبقات الاجتماعية فى مصر ، لاحظ داركور تميع الطبقات الاجتماعية فى مصر وعدم وضوحها ، وعزى ذلك لغياب أرستقراطية وراثية مصرية عريقة تحفظ للمجتمع تقاليده الاجتماعية على نحو ما حدث بأوربا ، وأرجع ذلك الى استبداد الأجانب بالمصريين وإلى نظام حيازة الأراضى الزراعية فى مصر الذى لم يسمح بوجود طبقات واضحة المعالم .

وفى الفصلين الرابع والخامس من الكتاب ، عالج داركور مشكلة الأقليات فى مصر معالجة سريعة ، ثم خصص الفصل السادس للحديث عن المرأة المصرية ووضعها الاجتماعى ، فانتقد الحجاب ، ونظام البيوت وطرزها المعمارية الإسلامية التى قامت على عزل الحريم ، وبذلك أضيفت حواجز جديدة عزلت المرأة عن العالم وعن العلم معا ، وفسر ذلك بالخوف الذى استشرى فى المجتمع المصرى ، خوف المحكوم من الحاكم ، وخوف القوى من الضعيف . ولأن الرجل لا يأمن على ماله وعرضه ، دفن المال ، وسجن المرأة ، وعاش فى فزع من القوة الغاشمة . وهاجم داركور الإسلام وعده مسئولا عن كل عادات المسلمين وتقاليدهم ، وعن جعل المرأة تعيش فى جو من الخرافات والأوهام ، لا تعيش إلا لغرائزها ، ولا تشارك الرجل فى أمر من أمور الحياة .

وفى القسم الثانى من الكتاب عقد داركور ثلاثة فصول عالج فيها تأثير الإسلام فى المدنية والفن فى مصر ، وأثر الدين فى حياة المصريين . وفى هذا القسم حمل داركور حملة شعواء على الإسلام ، فهو عنده لا يحث على العلم ولا يهتم إلا بالعلوم الدينية ، لأن العرب لا يميلون بطبعهم إلى العلم والمعرفة ، ولذلك كان كبار العلماء الذين تركوا آثارا علمية مهمة من أصول غير عربية ، بل ومن غير المسلمين ،

فالنساطرة من رعايا الدولة الإسلامية برعوا في الطب ، والاغريق علموا المسلمين الرياضيات ، والبيزنطيين علموهم الفن . ورأى أن المسلمين عاجزون عن خوض غمار العلوم الحديثة لأنهم يعيشون على التراث ، ويتمسكون به ، ولأن إيمانهم بالقضاء والقدر يدفعهم إلى الخمول والكسل ويرشحهم للعبودية والذل والفقر .

هذا مجمل للأفكار التى أوردها داركور فى كتابه "مصر والمصريين" ، وهى تعبر أصدق تعبير عن رؤية الغرب للإسلام والمسلمين فى ذلك العصر ، وما أحسبها تغيرت كثيرا فى القرن العشرين ، وإن وجدت بعض الدراسات المهمة التى أحسنت فهم الإسلام والمسلمين ، ولكن الرأى العام فى الغرب اليوم لا يختلف كثيرا فى رؤيته للإسلام والمسلمين عن رؤية داركور .

★ ★ ★

وقد استفز الكتاب قاسم أمين ، فأصدر على الفور كتابه "المصريون" ردا على افتراءات داركور ، ونشره بالفرنسية عام ١٨٩٤ لتصل الرسالة إلى أصحابها ، وليدفع عن مصر والإسلام ما حاول داركور إلصاقه بهما ، فكان هذا الكتاب الصغير حجما ،

الكبير معنى ومغزى ، تعبيرا عن فكر قاسم أمين وعن رؤيته الثقافية والسياسية معا .

ويستهل قاسم أمين هذا الكتاب بالحديث عن خصوصية التكوين الاجتماعى لمصر مؤكدا أن المسلمين والأقباط فى مصر يكونون نسيجا مصريا واحدا ، لأن المسلمين هم فى الأصل أقباط تحولوا إلى الإسلام ، ومن ثم لا يمكن التمييز بين المسلم والقبطى فى مصر ، فكلاهما يستمد عاداته وتقاليده ونمط حياته من تراث عمره آلاف السنين . ومن هنا جاء ما اختصت به مصر عن غيرها من بلاد العالم العربى الإسلامى من سمات . وأكد قاسم أمين خاصية امتصاص العناصر الوافدة وهضمها التى تميزت بها مصر عندما أشار إلى أن الأتراك قد ذابوا فى المجتمع المصرى ، وكذلك بعض العناصر الوافدة الأخرى كالشوام فيما عدا الشرائح التى ربطت نفسها بالأجانب . وبين قاسم أمين الظروف السياسية التى جعلت للأجانب وضعا متميزا فى مصر .

ودفع قاسم أمين عن المصريين تهمة الذل والخنوع والاستسلام ، فأكد أن المصريين لا يقبلون الضيم ، ويهبون دفاعا عن الشرف والعرض ، وأنهم يتسمون بالصلابة ورباطة الجأش عند الشدائد . ودافع دفاعا مجيدا عن العسكرية المصرية ، فذكر داركور بانجازات الجنود المصريين فى جيش محمد

على وكيف استطاعوا فرض وجودهم كقوة ضاربة فى شرق البحر المتوسط وكسبوا اعتراف القوى الكبرى بهم . وجاء تحليل قاسم أمين لأسباب هزيمة الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى أمام الانجليز تحليلا موضوعيا ينم عن معرفة عميقة بالتاريخ القومى الذى عاصره قاسم أمين ، فهو يعزو الهزيمة إلى انقسام الضباط بين مؤيد للخديو ، يمده بكل الأسرار الحربية (فينقلها إلى الانجليز) ، ومشايع لعرابى والثوار مما أضعف الجبهة المصرية ، وجاءت الخيانة والموقف المتخاذل للسلطان (الذى أعلن عصيان عرابى) لتساعد الانجليز لاحراز نصر سهل . وكأن قاسم أمين يريد أن يقول أن الجيش المصرى الذى هزم الانجليز عند كفر الدوار كان كفيلا بردهم على أعقابهم لولا تلك الظروف التى لا دخل فيها لشجاعة الرجال وحرصهم على الذود عن وطنهم ضد العدوان الأجنبى . وهنا نجد قاسم أمين أبعد نظرا من مصطفى كامل وأشياعه الذين علقوا وزر الهزيمة فى عنق عرابى وأنصاره ، واتهموهم بالتفريط فى الدفاع عن وطنهم ، فجاء قاسم أمين من موقع القاضى العادل ليرد للعرابيين اعتبارهم الوطنى .

وفى رأينا أن هاتين الفكرتين : الجماعة الوطنية التى تضم المسلمين والأقباط فى نسيج واحد ، ورد اعتبار العسكرية المصرية وانصاف العرابيين ، هما

أهم ما يلفت النظر فى هذا الكتاب ، وما يكشف عن التوجه الثقافى والسياسى لقاسم أمين ، وما يعطيه فضل السبق على جيل تالٍ من المثقفين أكد هذه المعانى بعد قاسم أمين بعدة عقود من السنين .

ويأتى بعد ذلك من حيث الأهمية (فى نظرنا) دفاع قاسم أمين عن الإسلام والمسلمين من منطلق مناقشة وضع المرأة فى المجتمع الإسلامى ثم موقف الإسلام من العلم والتعليم . وهنا يستدعى قاسم أمين كل ما لديه من معرفة عميقة عن الإسلام وعن أوربا والمجتمع الأوربى ، ويدير حوارا ذكيا يفند فيه حجج داركور مؤكدا أن الدين لا دخل له في تحديد منزلة المرأة فى المجتمع ، لأن الإسلام سبق كل الشرائع الأخرى فى تقرير حقوق المرأة كاملة قبل أن تعرفها أوربا باثنى عشر قرنا ، وليس للزوج عليها إلا سلطان معنوى ومعاملة بالمعروف ، وعزى التحجب الى عوامل اجتماعية وليست دينية ، ونفى مقولة أن الحجاب يمثل سجنا للمرأة ، لأن النساء يخرجن للأسواق والتزاور ، واعترف قاسم أمين بما تعانيه المرأة من الجهل لحرمانها من التعليم ، ولكن هذا أمر لا دخل للدين فيه . ودافع قاسم أمين عن موقف الإسلام من تعدد الزوجات وبين حكمته وأحكامه ، مقارنا بما يجرى فى أوربا من اتخاذ الخليلات ، وما

يشوب العلاقة بين الرجل والمرأة هناك من أمور غير مستساغة شرعا وقانونا ولا تتفق مع منزلة المرأة ومكانتها مثل حالات الاجهاض الشائعة فى فرنسا وانتشار ظاهرة أبناء السفاح .

وبعد عرض لأركان الإسلام ومبادئه صحح فيه قاسم أمين ما وقع فيه داركور من أخطاء تنم عن سوء الفهم والجهل بالإسلام ، أكد ما يتضمنه الإسلام من معانى تحض على مقاومة الظلم والطغيان ، وعلى العدل والمساواة والاخاء والتسامح ، والحرص على طلب العلم واعلاء قيمة التعليم ، مشيرا إلى كتابات المستشرق الفرنسى "سنديو" الذى سجل مساهمة المسلمين فى العلوم المختلفة ، وأشاد بانجازاتهم فى مختلف المجالات .

وختم قاسم أمين كتابه بفصل تحدث فيه عن اوربا مشيرا إلى أن من يتهموننا بالضعف والفقر والجهل ، هم الذين يضعون العقبات فى طريق نهضتنا باستغلالنا فى سبيل منفعتهم الخاصة ، فحولوا بلاد المسلمين إلى سوق لسلعهم ووضعوا العراقيل أمام محاولات اقامة صناعة وطنية ، وعاث رعاياهم فى الأرض فسادا محتمين بالامتيازات الأجنبية ، أضف الى ذلك السيطرة العسكرية ، واعاقة سبيل تطوير التعليم . ومحاولة تقويض دعائم الثقافة الوطنية عن

طريق الطعن فى الإسلام والثقافة الإسلامية ، ونشر العادات الاجتماعية المنافية للإسلام ، والمعبرة عن زيف الحضارة الغربية .

★ ★ ★

إن كتاب قاسم أمين "المصريون" الذى فند فيه آراء دوق داركور عن "مصر والمصريين" يمثل نموذجا راقيا للحوار مع الآخر والدفاع عن الثقافة الوطنية ، ويعكس بصورة جلية ثقافة قاسم أمين ، ويعبر عن مدى تعمقه فى فهم الثقافتين الإسلامية والأوربية ، وقدرته على صياغة فكر وطنى مستقل ، كما يعكس موقفه المعتدل فى قضية الاصلاح الاجتماعى . ولعل هذا الكتاب كان الحافز الذى دفع قاسم أمين لتقديم أفكاره الخاصة بتحرير المرأة فى كتابيه "تحرير المرأة" (١٨٩٩) ، و"المرأة الجديدة" (١٩٠٠) اللذين عبرا عن فكره الاجتماعى أصدق تعبير ، وأكسباه المكانة التى تحتلها فى الفكر العربى الحديث .

د . رءوف عباس

إن الفلاح المعاصر سواء كان مسلما أو قبطيا له بوجه عام قامة كبيرة وهو قوى وله بنية طيبة ويتمتع بنشاط جسمانى نادر . وهو يرتدى الملابس البسيطة ، وغذاؤه ردىء ومسكنه أردأ .. ويقوم بالأعمال الشاقة تحت شمس محرقة بدون تذمر ويكاد يكون راضيا بحظه .. وفى أغلب الأحيان يكون مزاجه معتدلا ويضحك مقهقها لأنه لا يهتم مطلقا بغده .. إن الطموح ينقصه ولا يهتم فى التفكير بأن بجانبه أغنياء يأكلون يوميا من أشهر الأطعمة ويلبسون ملابس فاخرة ، ويجد أن كل ما يفعله طيب وأن كل شىء على مايرام .. ليس حريصا لا على حب الحرية ولا على الشهامة التى يتميز بها عرب الصحراء ولكنه برغم ذلك ليس جبانا ولا ضعيفا ، إن هذا قد يدهشكم .. وانما اليكم التفسير :

أؤكد أن الفلاح لا يتراجع أمام أى خطر وهمى أو حقيقى ، وعندما يهاجم من عصابة مسلحة لا يتقهقر ، ويستعمل البندقية أو يلعب بالنبوت بكل شجاعة ، وهو يبحث عن المغامرات التى يجازف فيها بحياته لأن فى هذا إرضاء لكبريائه .. عندما كنت قاضيا عرفت بعض الاشرار الخطرين الذين ينتمون الى أسر غنية لم يسلكوا هذا الطريق الا ليلعبوا بأعمالهم الجريئة . وللفلاح قوة

احتمال تجعله يحتمل أقسى ألوان العذاب ، ويذهب الى الموت بإقدام ، ولقد رأيت أناسا يموتون وآخرون يحكم عليهم بالإعدام وأغلبهم لم يشك ولم يشعر بأدنى ارتباك حتى آخر لحظة فى حياتهم بل تحكموا فى أنفسهم مثل الرجل الذى يقوم برحلة أعمال ليعود بعد بضعة أيام لأهله . ليست الجراءة الفعلية هى التى تحملك وتدفعك نحو الخطر وإنما هى محض شجاعة ، والأولى لا تختلف كثيرا عن الثانية .

إن الفلاح كثيرا ما يستعمل الأسلحة النارية بكل مهارة ، وهم يستعملونها كثيرا فى حفلاتهم .. ولكن شيئا واحدا يخشاه المصرى أكثر من المرض ومن الطلقات النارية وأكثر حتى من الموت .. هذا الشىء هو "السلطة" ! نعم .. السلطة .. هى رعب الفلاح ، هى التى تجعله يطلق ساقيه للريح عندما يرى طربوشا ..! وهى التى تجعله يقبل أية اهانة ويمتثل لكل ظلم دون احتجاج ، وهى ايضا التى هيأت للدوق حضور بعض المشاهد المجانية وذلك عندما كان أحد اليونانيين يضرب فلاحا .. ولماذا ؟ هل السلطة ترعب الى هذا الحد ؟ إن هذا يبدو فى غاية البساطة ، إذ يمكن الاستهتار بالموت لأنه يعلم أنها مسألة دقائق من العذاب النفسى المخيف وتنتهى ، ولكنه لا يعلم متى ينتهى مع ضغط القوة . الجاد أو الضرب يمكن أن يدوم لساعات ، والتعذيب قد يمتد لشهور ، ولكن كل ثروة المعذب واسرته قد لا تشبع شهوة الموظف .

لقد رأيت بنفسي فلاحين ذاقوا ما يشبه الموت على أيدى يونانيين ، والفلاح الذى ضرب بالعصا هو الذى ألقى به فى السجن وهو الذى اقترض بضعة جنيهات لرشوة رجال السلطة . ورأيت ايضا فى بعض الحالات موظفين ضربوا الشاكى والمعتدى بالكرباج وصرفوهم الطرفين .. ورأيت بعض الشهود الذين استدعوا للاستدلال بهم فى وقائع يعلمونها يعاملون معاملة سيئة من نهب وسجن لعدة شهور ، ورأيت عندما افتتحت المحكمة الجديدة ببنى سويف أكثر من ٢٠٠ معتقل أمرت بالإفراج عنهم فورا ، وكان من بينهم اربعة خفراء متهمين بتركهم عاشقين اثناء دوريتهم . وكلنا يعلم الطريقة التى كان يستعملها الخديو اسماعيل لسلب خزائن الفلاحين .. وهى الكرباج فى الصباح وفى الظهر وفى المساء .

وأمام هذه الفظائع وجد الدوق داركور الفرصة للتحدث عن استعداد المصريين لقبول الضرب .. يقول الدوق : ان المصرى لا يدفع الضرائب الا اذا ضرب . ياإلهى .. اذا دفع اكثر مما هو مستحق عليه عشر مرات ، كيف يدفع إذا لم يجبر ؟ ويتهاونون مع الأوربيين اذا صفعوه أو ضربوه بعصا . ولكن بلا شك هذا افضل عنده من أن يشتكى أو يحتج لأنه فى هذه الحالة سوف يتعرض لكل تعسف من الموظفين الفاسدين الذين ينتظرون بفارغ

الصبر هذه الضحية الجديدة ، فى الوقت الذى يتمتع فيه الأوربى بكل حصانة .

واليوم وبعد أن انشئت المحاكم الجديدة ، بدأ الفلاح يسترد ثقته فى حقوقه ويشعر بأنه فى حماية القانون ونزاهة القضاة ، ولذلك اصبح لا يقبل الا فى النادر مثل تلك الاعمال التعسفية التى ذكرتها . والأوربيون الذين يحتكون اليوم بمصرى قد وعى حقوقه يندهشون لهذا التغيير ، وما نشر فى احدى جرائد الإسكندرية من موضوعات تتضمن وصفا لحالة المواطنين المعنوية بطريقة تشرف "النموذج والرسام" كما يقولون . فخير للغربيين أن يكفوا عن الاحتكاك بالمصريين ، فهؤلاء لن يقبلوا بعد الان أية إهانة علنية ، ولكنهم من ذلك سوف يمنحونهم دائما ضيافة مسلمة كريمة .

إن الشعب المصرى هادىء وفى طبيعته الطيبة ، وهو ذكى ناصح يعرف كيف يستسيغ كل ما يتعلمه وإذا كان تحت قيادة حكيمة فلن يحيد مطلقا عن الطريق الصحيح . أن الفلاح برغم كل ما قاله الدوق لا يكره التعليم .. وقد أشار الدوق فى كتابه الى حكمة يقال انها تركية : "اذا اراد الله للإنسان أن يقوم بعمل ما يعطيه فى نفس الوقت القدرة على القيام به" .. وهى من وضع مخرف عابث مستهتر .. ليس بمثل هذه المواضيع تكتب المؤلفات ثم تعطى مظهر الكتب التى تحتوى على معلومات ومبادىء إنسانية ..!

وفى الحقيقة يكون عبث من جانبى إذا أنا ناقشت مثل هذه الأقوال .. بدلا من أن يسرد وقائع رآها بعينه وبدلا من أن يتحقق من اشياء ولمسها بنفسه وحكم عليها بكل قسوة ، استند الى اقاصيص سمعها من السواح غير مضبوطة لا يمكن ضبطها .. وأننى أعلم من خبرتى كيف يؤلف الأوربيون كتبهم .. إن التراجمة هم الذين يقدمون لهم المادة وكلما كانت مرعبة وكاذبة درت عليهم الذهب ، وبصرف النظر عن ضمان مثل تلك المادة لنجاح الكتاب .

وإذا كان الدوق قد اهتم بأن يتعرف بنفسه على احوال رجالنا لكان وجد عكس ما ذكره ، ولما استبعد رجالنا المتعلمين وخصوصا الذين درسوا فى أوربا واصبحوا يشغلون المناصب الرفيعة فى حكومتنا .. ولابد أنه كان سيلاحظ درجة المعزة التى يحاطون بها من إخوانهم الذين لا يحتقرون التعليم مطلقا .. والدليل من هذا واضح ، بالرغم من كون التعليم عندنا ليس إجباريا فان عدد التلاميذ والمدارس عظيم ، ففى الجامع الأزهر يوجد على الأقل ١٥ ألف طالب كلهم تقريبا من أولاد الفلاحين ، وفى آخر احصائية قدمها أمين بك سامى ناظر المدرسة الناصرية ، اتضح انه يوجد بمدارسنا الآن ١٥٨٫٠٢١ تلميذ من بينهم ١٨٤ و١٥٥ تلميذ و٢٨٣٨ تلميذة من الديانة الإسلامية .

حقيقة كان الفلاح فى الماضى يرتدى ملابس الحداد إذا ذهب ابنه إلى المدرسة ، ولكنه اليوم عندما أدرك مزايا التعليم نراه يبذل مجهودا كبيرا لتربية اولاده . ولم يسبق قبل هذه السنة بالذات أن من بين الأربعة عشر شابا الذين اتموا دراسة الحقوق فى باريس يوجد ثلاثة من أبناء الفلاحين وهم أرباب أسر افترقوا عن أولادهم لمدة أربع سنوات وسافروا بعيدا وصرفوا من جيوبهم أكثر من ألف جنيه حبا فى التعليم .. وليس من بينهم من يشبه فى شىء تلك الشخصية التى خلقها وصورها الدوق . وفى آخر مسابقة أقيمت للموظفين أمام اللجنة الدائمة للامتحانات تقدم أربعة آلاف طالب لشغل وظيفة كاتب فى محافظة .

إن الأغنياء الذين يموتون بدون أن يتركوا جزءا من ثرواتهم للفقراء أو لبناء المدارس قليلون ، وكل جامع فى القاهرة أو الأقاليم ملحق به مدرسة ، والحكومة تنشر التعليم كل يوم أكثر وأكثر ، وتنفق كثيرا على بعثات تعليمية فى مدن أوربا التى يرسل اليها ايضا بعض الأفراد أولادهم على نفقتهم الخاصة ومن بينهم عدد كبير من ابناء الفلاحين .

ألا يعنى كل هذا شيئا فى نظر الدوق ؟ هل هذا الميل الجماعى وهذا التعطش للتعليم وهذا المجهود من جانب شعب بائس لينهض ويستعيد مكانة وثقة فى نفسه الا

يحرك كل هذا اى قلب حساس ؟

ولكنى أفهم جيدا عقلية الدوق .. لقد متع نفسه فى بعض فصول الشتاء بالسفر الذى لا ينقصه الترف ، واستشهد ببعض روايات السائحين وخص باختياره كل ما أساء للإسلام الذى يكرهه هو بكل روحه ! لقد رأى من شرفة فندق نيوهوتيل أو من العربة التى كان يتنزه بها شعبا فقيرا له مظاهر بسيطة ، وبناء على هذه الصورة الباهتة ألف كتابه . ولكن لنتمعن هنا قليلا ، اذا كنت قد قابلت عند وصولى الى فرنسا رجلا يعرج فهل كنت أسجل فى مفكرتى أن فرنسا كل سكانها من العرج ؟ وهل كنت بذلك أقول الحقيقة عن الشعب الفرنسى ؟ ولكن هذا هو ما فعله الدوق بالنسبة لمصر .. لانه لم ير مصر أو لم يشأ أن يراها الا من ناحية واحدة وهو ظهر الميدالية كما يقولون ..!

وياليته تكلم عن الذى رآه ولكنه فى أغلب الأحيان ـ وهو يعترف بذلك ـ كان يعتمد على أقوال المتحدثين أو الذين سمعوا وقالوا ، وعلى هذا كون رأيه بالطريقة المحببة إلى قلبه ليعلن بها نقص عقلية المسلمين . من الذى لا يرى ان الدوق اراد أن يشهر بمصر فى العهد القديم ؟ إن جميع الوقائع التى يسردها فى كتابه ترجع إلى عهد محمد على وسعيد واسماعيل ، ولكنه لم يلمس أو لم يرض أن يلمس التغيير بل أقول الثورة الشاملة فى كيان فلاح اليوم .

إن التقدم الذى حققه الفلاح كان عظيما جداً ، واليوم لا يمكن لأحد أن يمس جسده . تحصيل الضرائب اصبح بغير عنف وفى موعد محدد وإذا لم يتمكن من الدفع فلا يتخذ ضده إلاّ الاجراءات القانونية كالحجز والبيع الجبرى ، أما السخرة فقد ألغيت وبذلك أصبح اكثر عقلا وأقوى بصيرة وأكثر سعادة ، واستبعد فكرة رهن ممتلكاته أو الاستدانة عليها وبدأ ينمي ثروته ، والشيء الأهم والأكثر انطباعا أنه بدأ يهتم بالشئون العامة ويبدى آراءه فى اعمال الحكومة وقد أخذ كل هذا التقدم مكانه بلا طبل أو زمر .

هذه هى الحالة الحقيقية للمصرى والتى مر الدوق بجانبها دون أن يلتفت اليها . حقيقة لا يزال عندنا بؤس كثير فى الأرياف ، فان الفلاحين وأولادهم فى حالة من القذارة والحرمان تدعو الى الشفقة ، وهذا هو الأثر المحزن الذى يستقر فى نفس الأجنبى عندما يمر فى قرانا ، ولكن تحت هذا البؤس الظاهر يكون الجسد دائما نظيفا بفضل الوضوء للصلوات الخمس فى كل يوم ، وفى أغلب الأحيان تتربع فوق هذا الجسم رأس ذكية مثل الزهرة . وعلى العموم فمهما كان هذا البؤس فانه لا يقاس بمثل ما نراه فى مدن أوربا اللامعة حيث نجد يوميا رجالا ونساء واطفالا يموتون جوعا أو ينتحرون لتجنب هذه

الخاتمة المؤلمة . والقذارة عندنا فى الطبقة الدنيا ظاهرية فقط لأن الإسلام شدد التعليمات بالنسبة لنظافة الجسد لدرجة أنه لا يوجد مسلم قذر داخليا .

وعندما يتم نشر التعليم بين هذا الشعب فكل هذه الأطفال "ذات الاعضاء الهزيلة والبطن المنتفخة" سوف يصبحون رجالا يمكن الاعتماد عليهم . انى أعلم ان الدوق ليس عنده أدنى أمل فى تنشئتهم لجيل جديد لمصر ، ولكنى أؤكد له أنه ذهب بعيدا فى حكمه ضد الوضع الحالى فى مصر ، وهو لا يدرى أنه يحكم أيضا ضد حالة فرنسا التى مرت بها قبل مصر ، وبحسن نية إنى لا ارى من ناحيتى ان ماضينا او حاضرنا من وجهة نظر الدوق مهما كان سيئا يمنعنا من أن نساير التطور حسب قانون الإصلاح الذى يعمّ كل العالم . وهذا الماضى ألم تمر به فرنسا فى القرن التاسع عشر ؟ ألم يكن الرجال فى فرنسا عبيدا ملتصقين بالأرض ؟ وهل كانت الحقوق تقرر الا بالقوة الوحشية فى المداولات القضائية ؟ وهل العقوبات الجسمانية المشينة والتعذيب الفظيع لم يستعمل مع أسلاف الفرنسيين ؟ وهل طبقة النبلاء الفرنسيين لم تحتقر ولمدة طويلة هذه المهن الوضيعة مثل التجارة والصناعة والفنون الجميلة وحتى العلم ؟! وإذا كان هذا لم يمنع الفرنسيين من أن يكونوا اليوم دولة عظيمة وجميلة ، فلماذا يريد الدوق أن يكون ماضينا عقبة مستديمة فى سبيل تقدمنا ؟.

ماهى العناصر التى يتكون منها المجتمع المصرى حاليا ؟ يوجد أولا المصريون الحقيقيون المسلمون والأقباط ومنهما تتكون الغالبية العظمى من السكان ، وأنا اسميهم بالمصريين الحقيقيين لانهم ينتمون لأصل واحد ، ومن المؤكد والواقع أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن أو فى الأرياف ليسوا من أصل عربى ولكنهم كذلك باللهجة والديانة فقط ، وعندما نراهم نقتنع بأن لهم نفس الشكل القبطى ، كما أؤكد أن المصريين المسلمين ليسوا سوى اقباط اعتنقوا الدين الإسلامى .

هؤلاء يشتغلون بالزراعة والصناعات الصغرى ، ومن هؤلاء يجند العساكر والموظفين الحكوميين .. وتلك هى الطبقة العاملة التى تغذى مصر بإنتاجها ، وهى التى تهتم اليوم فعلا بشئون البلاد وتأخذ نصيبها من أفراحه وآلامه ، وهى ايضا التى تقدم لمصر الرجال الذين يمثلون جميع فروع العلم .

وبرغم فارق الدين الذى يفرقهم فان المسلمين

والأقباط يكونون كلا منسجما ، ويتكلمون لغة واحدة ويلبسون نفس الملابس ويعتنقون نفس العادات ، ولم يحصل منذ أن عاشوا مجتمعين جنبا الى جنب أن وقع بينهم اى خلاف جدى ، والمصائب الجماعية خلقت بينهم شعورا واحدا بالوطنية فتغلبت وحدة الاصل علي اختلاف الدين ، ويكفى للرد على من أرادوا لنا انشقاقاً أنه أثناء ثورة عرابى ، وضع الأقباط يدهم فى يد المسلمين ولم يوجد مسلم واحد فكر في أن يعكر صفو أحد من الاقباط بينما أظهر مسلمو الأتراك والشركس عداءهم لمصر .

إن الدوق أساء كثيرا الى مواطنينا الأقباط لأنه لم يتعرف عليهم جيدا . وهو يعترف بنفسه فى كتابه بأنه لم تتح له الفرصة للتعرف عليهم شخصيا ، وعلى ذلك فليس مستغرب أن يحكم عليهم بالسوء مثل ما حكم علينا . إن كل ما أريد أن أقوله فى كتابى هذا اردت به تبريرا وتصحيحا للأغلاط التى أراد الأوربيون أن يلومونا عليها نحن والاقباط وينسبونها خطأ الى الدين .

ويأتى مباشرة بعد المصريين الأتراك .. ولكنهم كادوا ينقرضوا أو انصهروا فى المصريين . وهم من مدة طويلة لم يلعبوا أى دور فى حكم البلاد ، أما النفوذ العجيب الذى كان يتمتع به الدراويش ومؤامرات الباب العالى التى أشار اليها الدوق هى محض خيال .

يوجد بعد ذلك الشرقيون والسوريون ، والأرمن

واليهود إلخ ... وهؤلاء يكونون الجزء المستفيد اكبر فائدة من مجموع السكان . باستثناء البعض الذى لا ينتج شيئا ومع ذلك يكسب كثيرا .

وأخيرا يأتى الأوربيون الذين نوجه اليهم كثيراً من القول الطيب ، وكثيرا من اللوم ، فللأسف ان الذين استفادت منهم مصر فائدة حقيقية قلة نادرة ، أما الأكثرية فكانت لا تهتم الا بالثراء السريع ما امكن ثم الرحيل بعد ذلك ، وكان ينقصهم تتبع التقدم العلمي والأدبى ، وكل واحد منهم كان يحصل على حقوقه كاملة ولا يفعل شيئا فى مقابل ذلك ، ولكن كل هذا لن ينسينى أن أذكر العدد الكبير من العاملين منهم الذين قدموا لنا أجل الخدمات والذين تأثروا لآلامنا وأحبونا محبة صادقة .

إن المصريين سوف يذكرون دائما هذه الشخصيات النبيلة اللطيفة المحبة للإنسانية وسوف يعترفون بتبادل افكارهم وتداولها كعامل من أهم العوامل فى صحوة مصر ، ولقد اعطونا أمثلة طيبة ، وهم أول من استأنسنا بآرائهم الاجتماعية والسياسية والفلسفية والعلمية ، ومن هذه الناحية فان الخدمات التى أدوها لمصر كانت غير منكورة .

يظهر أن الدوق يريد أن ينعى علينا ان ليس لدينا مساواة اجتماعية ومتضرر من عدم وجود طبقة للأشراف

عندنا . والحق أنه ليس عندنا لا سلالة من الأشراف عن وراثة ولا اشراف عن غير وراثة ، فإن جميع السكان فى بلد إسلامى بلا تفريق فى الجنس أو الدين جميعهم يتساوون أمام القانون ، أن الإسلام لا يعترف مطلقا بامتياز النسب أو المال ، ولذلك فإن الإسلام قد سبق بأكثر من ألف سنة النظم السياسية الثورية .

ولا أظن أن في هذا ضرراً ، أنه ليس من العدل فى شىء ولا من الفائدة أن تكون مجرد الصدفة لمولد إنسان يعطى له الحق فى مركز ممتاز . ولكن هل يعنى هذا اننا نغفل قوانين الوراثة ؟ مطلقا .. أننا نفكر مثلث العالم كله فى أن العيوب والفضائل والذكاء والطباع يتوارثها احيانا الابن عن الأب ، ولكننا نعتقد أيضا أن هذا ليس سببا كافيا لأن يصبح ابن الباشا الكبير مثل أبيه لمجرد مولده ، بل على هذا الأبن أن يعمل ليستحق هو شخصيا هذا الشرف أو حتى لينال مكانة أعظم . على العموم فإننا نحتاط للاحوال الشاذة التى لا تتفق مع المنطق التى نجدها صارخة عند تطبيق قوانين الوراثة ، ونحن نتحاشى حالات عدم العدالة الطبيعية الموجودة بكثرة فلا نضاعفها أيضا بأيدينا .

إن المبدأ الذى يعتز به بعض الاقتصاديين "لكل فرد بقدر عمله" كان وسوف يكون دائما نبراسا لنا .. فإننا جميعا أبناء أعمالنا .. وإذا كان هذا يتعارض مع الأفكار الارستقراطية للدوق داركور فليس هذا ذنبنا ، وباختصار

فإننا نؤمن بقول الشاعر العربى :

كن ابن من شئت واكتسب ادبا
يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول هأنذا
ليس الفتى من يقول كان أبى

وفى الحقيقة إن كل مجتمع إسلامى لا يقوم إلّا على أساس من الديمقراطية ويعتمد دائما على فكرة المساواة والأخوة ، ليس الرجل الذى ينحدر من طبقة راقية هو فقط الذى يستطيع أن يصل إلى أعلى المراكز ، ولكن الرأى العام الإسلامى لا يعترف بهذه التفرقة فى المعاملة ومظاهر الاحترام الموجودة فى المجتمعات الأوربية بين الغنى والفقير وبين الأشراف والدهماء . فالكل عندنا سواء واندماج الطبقات عندنا متكامل . إن الباشا لا يخجل أن يستقبل رجلا فقيرا معدما ، ويمشى معه ويصحبه فى عربته ويستضيفه على مائدته . والعيد عندنا يكون عيدا شعبيا يباح للناس جميعا ويكون لهم الحق فى اللهو والتسلية . إن رب البيت لا يجد أية غضاضة نحو الذين يدخلون بيته بلا دعوة ولا يعتبرهم طفيليين مطلقا .

والسواح الذين يفدون علينا فى الشتاء يعلمون ذلك جيدا ويستفيدون منه ، وعابر السبيل بصرف النظر عن ديانته عندما يمر أمام أى منزل فى ساعة الغذاء يستطيع أن يتقدم لاشباع معدته ويستريح كيفما يشاء ، بل

ويستضاف ايضا للمبيت ، ولا أحد يسأله من هو .. إنه إنسان وكفى .

إننى لا أبالغ مطلقا إذا قلت : إن اليهود واليونانيين والموظفين الأوربيين الذين طافوا بالمدن والقرى يشهدون ـ على ما أظن ـ بالكرم العربى الحقيقى الذى يجدونه دائما عند المصريين من كل الطبقات . وربما يكون الغذاء الذى نقدمه لهم لا يروقهم ، ولكن هذا ليس ذنبنا فإننا نقدم لهم ما يمكننا أن نقدمه .

وليس عندنا هذا المعبد العظيم المهيب الذى يسمى بالكنيسة ، إذ لا شىء عندنا يمثل السلطة الروحانية ، فكل مسلم يعتمد على نفسه فى إقامة الشعائر الدينية . وعلماؤنا ومشايخنا ليس لهم أى طابع عمومى أو دينى وليس لهم علينا غير السلطة المعترف بها جيدا لعلمهم .

ويمكن أن نجزم بأن كل شعب إسلامى لا يتكون إلا من طبقة واحدة هى التى تضم مجموعة المواطنين ، ومن بين هؤلاء يوجد القوى والضعيف ، العالم والجاهل ، الغنى والفقير ولا يوجد رجل متميز ورجل عادى ، وهم جميعا متحدون ويتمتعون بكل الحقوق وبكل الميزات وفى مستوى واحد وهم جميعا يكونون الشعب . إن شريعتنا الدينية قد نظمت حالة الفقراء بطريقة جريئة وسعيدة . لقد رفضت الإحسان الذى يذل والعطاء الذى يفسد وخلقت ضريبةً حقيقية وثقيلة لانها تمثل النسبة

الاربعينية على الثروة وأحيانا اكثر من ذلك فضربت بذلك الغنى لمنفعة الفقير . ولكى تضمن دائما تنفيذ هذا الاستحقاق جعلته واحدا من العقائد الخمس التى هى أسس الإسلام . وكذلك نظمت الملكية واعلنت حق الفقراء فيها وأشركتهم بذلك فى ثروة الأغنياء . وهذا كما نرى حل لمشكلة اجتماعية عن طريق الأشتراكية الذاتية .

هل نظام كهذا لا يوفق بطبيعته بين جميع المصالح ويريح كل الأعصاب ؟ أليست هذه الاشتراكية ! رقى وأكثر عملا من كل الأنظمة المتبعة فى أوربا الآن التى تتميز بالنقص وبالصعوبة عند التنفيذ ؟

إننى أرى فى كل أوربا عقولا قلقة ونفوسا مضطربة ، والمنازعات بين الطبقات تزداد حدة يوما عن يوم ، والأغنياء يرتجفون والفقراء يتذمرون ، كل هذه بوادر تنذر بانفجار كبير مرعب ، وعلى النفوس المخلصة المتحررة والعلماء والكتّاب ان تصحو لتسوية كل هذا . من أول المصلحين المعتدلين الى اصحاب النظريات المتطرفة كل يدعو الى فكرة أو نظام .. فلماذا لا تأخذ أوربا عن الإسلام - الذى سبق أن انتشل الغرب من الجاهلية - الدواء الذى ربما يشفيها من دائها ؟ اظن أن العلماء والسياسيين الغربيين يمكنهم أن يستخلصوا فائدة كبرى بدراستهم لهذا النظام الاجتماعى ويحاولوا تطبيقه بما يلائم بلادهم .

إنى أكاد اسمع الدوق وهو يقول : ولكن حالتكم الاجتماعية ليست على ما يرام وعندكم بؤس كثير. فعلا .. ومن زمن بعيد للأسف غزا الالحاد الغربى عقول المسلمين وجعلهم يتخلون عن التقاليد الإسلامية الطيبة هذا الغرض اصبح بعيد التحقيق بدقة وخصوصا بعد ان ابتدع بعض الجزويت عليهم للتخلص من الحق ولكن القانون لا يزال بالمرصاد ، وليس هناك الا تطبيقه كما كان .

إن الماضى ملىء بالارشادات التى لا أفهم لماذا نذهب بعيدا عنها للبحث عن طريق السعادة . فكروا عندئذٍ فى الإسلام يساوى ويؤاخى بين اوائل العرب . تذكروا أن عليا خليفة المسلمين الرابع ساقه يهودى أمام القاضى الذى طلبه فوقف بكل نفس طيبة بجانب خصمه . تذكروا ايضا عمر الخليفة الثانى عندما كان مسافرا الى سوريا على جمل وعندما وصل الى منتصف الطريق نزل وأعطى مكانه لعبده ومشى خلفه حتى باب المدينة ، فأعطى بذلك للمارقين مثلا عظيما لحاكم يحرس عبده ، وهو نفسه الذى ألقى ذات يوم خطبة فى الجامع على المسلمين فقال : "من وجد منكم فىّ اعوجاجا فليقومه" .. فوقف احد المسلمين ورد عليه قائلا : اذا كنت قد انحرفت لكنا قومناك بحد السيف .

وعندما اراد المسلمون أن يمارسوا الانتخاب العام

لحكامهم استلهموا مبادىء القرآن الكريم التى توصى النبى بأن يشاورهم فى الأمر . قولوا لى بصراحة بعد أن تبينتم كل هذا هل يمكننا أن نستسيغ أو نتعلق بشىء آخر ؟..

إن المجتمع الإسلامى اصبح اليوم فى حالة من الفوضى متناهية .. ليس للمسلمين قاعدة دينية أو علمية .. والدولة تركزت فى رئيس يرث المنصب وليس له من هاد غير ارادته واطماح حاشيته .. وهو المتصرف فى كل شىء .. وليس للشعب أى حقوق غير التى ترضيه ان يتبعوها ، والجهل والتكالب على المنافع الشخصية وعدم الأمان وانعدام الشعور بالتضامن ذلكم هو النصيب المؤسف لمثل تلك الحكومات .

ولكن مصر وحدها هى التى تشذ عن هذه القاعدة واصبح واضحا انها عزمت على استرداد مكانتها فى العالم التى يؤهلها لها مركزها وماضيها . لذلك كان امامها طريقان : الرجوع الى التقاليد الإسلامية أو أن تحذو حذوا اوربيا .. فاختارت هذا الطريق الأخير . وليس من عندى تتباين مزايا هذا الاختيار ، لأنها كانت تتبع حركة الحضارة الأوربية التى اتخذت طابع الغزو لكل مكان والتى يبدو ان من الصعب مقاومتها ، وأيضا لقد تقدمت الآن كثيرا فى هذا الطريق حيث لا تراجع .

إن مصر تشبهت بأوربا بطريقة مدهشة ، فى الإدارات

والانشاءات والاعمال الهندسية والشوارع وفى العادات واللغة والأدب وفى الذوق ووسائل التغذية ، والملابس كلها أصبحت حسب الطريقة الأوربية . كل ما يحدث أو يكتب فى أوربا اصبح محل اهتمام ، وكل الأفكار التى تتردد فيها لها هنا رد فعل . ان المصريين اخذوا يعتادون على قضاء الصيف فى أوربا مثل الأوربيين الذين تعودوا على قضاء الشتاء فى مصر . لعل هذا الوضع يرضى أوربا ويجعلها تعمل مستقبلا على رد جزء من هذا الميل العظيم الذى تكنه لها مصر .

المصريون تركوا مهنة حمل السلاح لمدة طويلة .. ولعدم تمتعهم بأى من حقوق المواطنين ، لم يشعروا بالواجب . ولقد عاشوا بدون أدنى اهتمام من جانب اسياد مصر كأنهم هم الغرباء ، ولذلك عندما دخل نابليون مصر لم يجد من يتعامل معه الا مع المماليك . وشعور الشعب المصرى الطبيعى أملى عليه عدم مقاومة الأجانب الذين اساءوا اليه وبما أنه غير قادر على طردهم فكان يأمل دائما فى أن يجد المخلص . وهذا شعور مفهوم تماما وله ما يبرره ، ولماذا يهدر دمه دفاعا عن وطنه أم عن عدوه اللدود ؟

إن حب الوطن فرض غريزى . واذا قمنا بتحليل معنى "الوطن" نجد أنه يتألف من كل شيء نعزه ، والدفاع عنه دفاع عن أغلى ما يخصنا الدفاع عنه . كذلك عندما تكون الوطن المصرى على يد محمد على لم يبخل المصريون بدمائهم ليضفوا على وطنهم ما يمكن من فخار .

لقد قلت : إن المصرى لم يكن جبانا مطلقا وأنه لا يخاف الموت أو التعذيب واذا كان يتحمل بعض الإهانات فلأنه أصبح كالأبله تحت ضغط الحكم ، وانتهى إلى الظن بأنه خلق ليتحمل كل هذه النزوات . وهو لا تنقصه

الحيوية الجسمانية ولا النشاط الذهنى ولا يحتاج الا لمن يأخذ بيده ويوجهه توجيها حسنا ليصبح قوة كبيرة وهذا ما سأدلل عليه بالوقائع التى لا تقبل الجدل . فى سنة ١٨٢٥ ارسل محمد على جيشا لنجدة السلطان محمود الذى استنفد كل موارده فى المعارك ضد اليونانيين ، وأحرز انتصارات باهرة فى جميع المعارك التى خاضها ضد الجنود اليونانيين الذين شهد لهم العالم بالشجاعة . وبذلك سلمت ناڤارين وترييبوليتزا عاصمة بلاد المورة . وبسبب تدخل الجيش المصرى أيضا كان لابد لليونانيين ان يسلموا مسولونجى برغم الدفاع الرائع الذى أبدوه . ثم أتت بعد قليل معاركه مع السلطان محمود فوضع محمد على كل ثقته فى الجيش المصرى واعتمد عليه لمناصرته .. ونحن نعلم الى أى حد برهن هذا الجيش على تحقيق هذه الثقة .

وجولة بعد الأخرى استسلمت غزة ويافا ودمشق ، واستمر الجيش المصرى بعد أن شتت الأتراك فى قونية وانطاكية ، استمر بدون مقاومة فى زحفه وانتصاراته فى آسيا الصغرى ، وان فى موقعة ناصيبان لمصلحة مجيدة فى تاريخ حروب الجيش المصرى . وإذا اضفنا ايضا الى هذه الامجاد ، الانتصارات التى احرزها الجيش المصرى ضد الوهابيين وفى فتح السودان فانه لا يسعنا الا أن نعترف بأن هذا الجيش اظهر صفات حربية حقيقية ممتازة .

ولننتظر هنا قليلا حتى نستعرض السؤال الذى وجهه الدوق فى هذا المعنى : هل يمكننا أن نصدق أن التعليم الحربى فقط ، واستعمال الأسلحة حسب النظريات وأخيرا التطبيق السليم للنظام العسكرى يؤدى الى تكوين الرجال ؟ وهل يمكن باستخدام هذه الطريقة أن نستخلص من شعب مستعبد بائس يخاف الحياة ، جيوشا قوية وباسلة ؟

هذا سؤال مهم جدا لأنه سيرشدنا لمعرفة القيمة الحقيقية للجندى المصرى .. ولكن أليس بمستغرب بعد أن طرح الدوق هذا السؤال أن يتركه بدون اجابة ؟ وكيف أنه بعد ان أكد أن الجنود المصريين لا يملكون ادنى ميزة من الصفات الحربية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإنه بعد ذلك يضطر إلى أن يشهد لهم بالانتصارات العظيمة التى احرزوها فى عهد محمد على ، كيف هذا وماذا أقول ؟ ألا يشعر الدوق بهذا التناقض الخطير الذى سيلمسه العالم كله فى اقواله ولا يستطيع مداراته ؟ ألم يكن أجدر به ان يفسر لنا كيف يوفق بين نقص الصفات الحربية عند جنودنا وبين الحقيقة التاريخية التى تناقضه تماما ؟ أليس عنده كلمة تفسر لنا ذلك ؟

نعم .. بدلا من أن ينقل لنا الحديث الذى دار بين مسيو "ن" ووزير الخارجية الفرنسية ، ذلك الحديث الذى يثبت ان مسيو "ن" زعم بأن جيش عرابى المصرى ليس

قويا ولا جادا ، وبدلا من أن يحدثنا ايضا عن انتصار الانجليز السهل ، كان الدوق يجذب باهتمام المصريين بل كل سكان مصر لو فسر لنا الأسباب الخارجية والعرضية والغامضة التى تحت تأثيرها خرج هذا الجيش الذى ليس له قيمة منتصرا اذا قورن بشعوب فى غاية الشجاعة .

لأن الانتصار السهل الذى احرزه الانجليز ، كل العالم يعرف أسبابه إلا سيادة الدوق .. بل اقول ان كل العالم كان يتنبأ به ، ولكن ليس كما ظن مسيو "ن" بان الجيش المصرى ليس جادا ، ولا كما ظن الدوق بان الجنود رفضوا ان يحاربوا ، ولكن لأن قواد الجيش انقسموا الى حزبين : حزب عرابى ، وحزب الخديو .. وضباط الحزب الاخير كانوا يبعثون إلى الخديو يوميا مع تأكيدات الولاء جميع الخطط والحلول بالتفصيل الدقيق قبل القيام بها . ولقد ازداد هذا الانقسام عندما دعا السلطان إلى مقاومة عرابى بالقوة . وهل المصريون جميعا لا يعرفون هذا الضابط الكبير الذى مهد لهزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير ؟، والذى افتخر بذلك علنا ، وكان عذره انه كان يؤدى الواجب نحو السلطان ؟

فلنترك عرابى وجنوده يجيب عن السؤال الذى عرضناه قبل ذلك ، من المؤكد ان التعليم العسكرى فقط قد لا يكفى لتحويل رجل جبان الى رجل شجاع ، برغم ان التربية العسكرية وحياة الجندية الشاقة والمعارك تدفعه

الى حد ما الى الشجاعة . ولذلك فانى اقول بأنه اذا كان الجيش المصرى فى عهد محمد على قد حارب بشجاعة فلأن الجنود كانت لا تنقصهم الشجاعة ، واظن ان الجندى المصرى الذى واجه كل هذه الاخطار يمتاز مائة مرة عن الجندى الأوربى .

ان هذا الاخير عنده غذاء طيب ويعتنى به جيدا وتستجاب أدنى رغباته ، واذا أظهر شجاعة فى عمل ينشر اسمه فى الأوامر اليومية ويهنأ ويكافأ ، ومئات الجرائد تنقل اسمه الى الأجيال القادمة ، واذا مات فى ميدان الشرف فان ارملته واولاده لا يشعرون بالبؤس ويجدون أيادى كريمة وشفاهاً باسمة ، ويسعى الناس فى كل مكان لمساعدتهم .. فهل الامر كذلك بالنسبة لجنودنا وضباطنا ؟ إن هؤلاء فى حياتهم واسرهم من بعد مماتهم لم يجدوا ولزمن طويل غير حكومات ظالمة شريرة بعيدة عن العرفان . أليس هذا سببا حقيقيا لإضعاف الهمة ؟ هذا بالاضافة الى الانعدام الكلى لفكرة ألوطن لزمن بعيد يفسر حسب رأيى الضعف وعدم الاكتراث وعدم التشجيع الذى يوجد فى جيشنا أحيانا .

ولكن هذا لا يعنى مطلقا ان جنودنا كانوا كمية مهملة ، ولقد رأينا جيدا فى حرب سنة ١٨٧٧ جميع المصريين الذين خاضوا المعارك مع الروس حاربوا بشجاعة ، ولقد تركوا فى استامبول احسن الأثر . وفى خلال اقامتى

القصيرة فى تلك العاصمة اخيرا اتصلت بضباط اتراك لم يتوقفوا عن ترديد كل ما يشرف عن سلوك جنودنا وحددوا لى اسماء كثير من الابطال (وخصوا بالذكر محمود باشا فهمى) الذين امتازوا بشجاعتهم ، وكل العالم يفهم معنى هذه الكلمة اذا كانت صادرة من فم تركى !

ان اى شعب يمكن لسبب أو لآخر أن يبتعد لاجيال عديدة عن الحياة العسكرية ومع هذا لا يفقد صفاته الحربية ، واذا جدت حروب فسوف تسرى فيه دماء أجداده . إن صفات الجندى المصرى قد استردها فى حروب محمد على ، وكذلك فى هذه الايام ، وليس عندى لاقناع القارىء إلا ان اعرض عليه شهادة الضباط الانجليز الذى كانوا فى قيادة الجيش المصرى :

(١) قام الجنرال جراهام بتهنئة الضباط والجنود والمصريين الذين اشتركوا فى معركة طوكر يوم ٣ مارس ١٨٨٥ ، لشجاعتهم وكفاءتهم . ونشر اسم القائمقام مختار فى الأمر اليومى .

(٢) فى يوم ١٧ مارس ١٨٨٥ ، قام الجنرال وولسلى بتهنئة سلاح الفرسان المصرى للشجاعة التى ظهرت فى معركة كيريكان .

(٣) فى يوم ٢٥ مارس وجه الجنرال فريمانتل ثناء للقوات المصرية التى تحت قيادته .

(٤) فى يوم ١١ ابريل ، الجنرال وولسلى يهنىء من جديد الجيش المصرى .

(٥) فى يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٨٦ ، السردار الانجليزى يشكر الجيش المصرى بمناسبة معركة جنيز .

(٦) فى يوم ١٠ سبتمبر ١٨٨٨ ، نفس الجنرال يشكر الجيش بمناسبة الانتصار الذى احرزه فى خور موسى .

(٧) ونفس الجنرال يهنىء الجيش ويأمر له بمكافآت كبيرة بمناسبة المعركة الممتازة فى توشكى التى اسر فيها حوالى ٦٠٠٠ سودانى .

(٨) وبمناسبة استرداد طوكر وايضا لغزوات اخرى تسلم الخديوى تقارير مختلفة من القواد ومن القائد العام الانجليزى وفيها اعظم ثناء على الصفات الحربية للجيش .

وفوردن نفسه بعد ان كان ضد الجنود المصريين وكان يفضل عليهم الجنود السودانيين اضطر فى ختام يومياته ان يقدم اعتذاره ، ويعترف رسميا بقيمة المصرى الذى كان يقوده والذى قاوم معه الحصار الفظيع لاكثر من ٣٠٠ يوم .. وماذا نظن فى جنود نفدت كل مواردهم الغذائية ، وكانوا لا يجدون حتى الفيران لغذائهم ومع ذلك استمروا فى النضال بجانب رئيسهم وهم يعلمون جيدا

بان ليس لهم من نجدة ، ولكنهم ارادوا مع ذلك ان يشاركوا فى حماقة يحوطها مجد جميل !

إن الرق موجود من قديم الأزل . ولقد دام لسنوات قريبة فى شعوب كلها حضارة وبنوع خائن فى امريكا . ولذلك فلا يستغرب من جانب المسلمين اذا كانوا قد قبلوا ومارسوا الرق مثل غيرهم .

وعلى ما أظن لا يوجد الآن مايدعو لمناقشة قضية الرق ، وزوال هذا الوضع المخجل الى الأبد مما يشرف الانسانية ، ولذلك فان المسلمين لن يأسفوا مطلقا لزواله . ومن الملاحظ فى الواقع ان الرق الذى كان موجودا فى المجتمعات الاسلامية كان مخالفة صارخة للشريعة الدينية التى لم تقبل غير نوع واحد منه وهو الاسر فى الحرب وبشرط ان تكون نظامية ، أعنى مسبوقة بانذار . وفيما عدا هذه الحالة فالرق أمر غير مشروع ويعاقب عليه بشدة . أن اكثرية العبيد الذين كانوا فى مصر لم يكونوا اسراء قط بل كانوا ببساطة مشترين أو مخطوفين بالقوة . وهذا يفسر فى رأيى الأجراءات السريعة التى بادرت اليها الحكومة المصرية والوطنية بمساعدة انجلترا فى رسالتها التقدمية التى كان لها شرف تقييمها فى العالم لإلغاء الرق الذى غادر مصر اليوم الى غير رجعة .

ألا يدعو للاحترام ملاحظة تؤكد أن الأسلام كان أبعد

عن مضاعفة اسباب الرق كما فعل بعض المشرعين بل قصرها على وضع واحد ، وكان أبعد عن الغزو بين المحكومين مثل بعض الشعوب التى عندها عقدة الجنس الأسود تلك التي أوحت لمونتسكيو صفحة من أمرح صفحات كتابه "روح القوانين" ، ان المسلمين يدينون فى كل الاوقات بحرية الفرد دون تمييز لجنس أو لون .

ومنذ عهد ارسطو الذى كان يؤمن بأن بعض الناس يولد ليكون سيدا والبعض الآخر يولد ليكون عبدا ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر إلى اوائل القرن التاسع عشر كان الرق قد استنفد كل شرعيته فى رأى الاوربيين ، بالنسبة لنقص بعض الاجناس ومن بعضها الآخر . ولم يكتفوا فى القرون الوسطى بقبول استعباد الزنوج بل كانوا يستعبدون البيض ولم تختف بقايا هذه الآثار البغيضة من أوروبا الا منذ عهد قريب . ان شروط الاحتكار أخف بلاشك من الرق ، وان كان الفرق فى الواقع غير ملحوظ بين حالة الفلاح الفرنسى فى ذلك الوقت وبين حالة العبد التى نظمها الإسلام . اما السيد فكان له مطلق التصرف في النفس وفى المال . بينما الإسلام لم يسمح بالرق الا بالنسبة للرجال الذين يؤسرون في الحرب ، وتبعا للعرف القديم الذى تداوله الرومان والذى دافع عنه "بوسو" أخيرا ، نجد ان المسيحية قد وسعت نطاق الرق حتى شمل الجنس الأسود كله وخلقت السخرة بالنسبة للجنس الأبيض .

اننى لمندهش حقا من قرار الدوق عن الفلاح المصرى مؤكدا بأنه عبد حقيقى ..! الواقع أن له بعض العذر ، فقد قلت قبل ذلك ان السلطة الحاكمة قد اساءت الى الشعب المصرى أبلغ اساءة ، ولكن من الاهمية أن نسجل أن فى أى وقت من تاريخنا لم يخلق القانون مطلقا عدم المساواة فى المعاملة بين الأفراد الذين ينتمون لاجناس ولديانات مختلفة ، أجد انه لم يفرض الجزاء على استغلال الإنسان لاخيه الإنسان .

نرى مما تقدم انه إذا كان الإسلام قد قبل الرق فى بعض الحالات فإنه أحسن فهم الكرامة الإنسانية ولم يتسامح مطلقا فى أن يعتدى عليها بأدنى سوء . حسننا ان نذكر هذه الحقيقة فى الوقت الذى ألغى فيه الرق ، بعض المجتمعات الاوربية وبعض الكتّاب والخطباء وبعض رجال الدين ذهبوا فى التعصب الى حد تأييد الراعى الذى يقول أن الأسود فى نظر المسلمين ليس من الجنس البشرى . والمسيحيون الذين يشيرون إلى الغاء الرق كحسنة من حسنات المسيحية يغالطون انفسهم ، وليس علينا ألا نذكرهم بأن المسيحية تعاقدت على صفقة طيبة من العبيد ورجال السخرة ابان عدة قرون ، إن الرق كان مشروعا باقرار بعض رجال الدين المعتمدين من المجمع المسيحى المقدس مثل بوسو من بين القدامى ومن بين القساوسة العصريين بابيلى وليون ، وبوسان . ولكى ابين زيف هذه المغالطة لا اجد خيرا من أن انقل الكلمات

الآتية لبيير لاروس : "وباختصار فان المسيحية حتى يومنا هذا وافقت تماما على الرق ومن المستحيل اقامة الدليل على انها حاولت مطلقا إلغاءه .. ولابد أن افكارا ومبادىء أخرى قد نمت حتى اختفى هذا النظام ويرجع الفضل فى ذلك للثورة الفرنسية التى بمبادئها الحرة ، هدمت كل اثر للرق عندما اعلنت مساواة الناس امام القانون" .

وبعد ذلك فلندرس مركز العبيد فى مصر ، إن الدوق داركور يعترف بأن العبد فى مصر ليس محتقرا .. ويقول فى هذا : "من الصعب علينا أن نتصور أن العبد ليس منبوذا فى الصف الأخير من المجتمع ، وانه لا يتألم من هذا الوضع المهين . والأمور لا يجب ان ينظر اليها بشكل آخر فى مصر ، فالعبد كان يخضع لظروف استثنائية ذليلا بدون شك ، ولكنه ليس مكروها على الاخلاق ، بل كانت له امتيازات لتعرض عنه متاعبه" . ولقد أكد ايضا ان كثيراً منهم قد وصل لمناصب كبيرة فى الدولة ، فكيف تتأتى هذه الحالة التى لم نر لها مثيل مطلقا فى اى مكان آخر ؟ ولماذا كان المسلمون دائما يعاملون عبيدهم كرجال وبكل طيبة ؟ هل كما ظن الدوق داركور لأن الحركة الصناعية والتجارية ليس لها وجود فى البلاد الإسلامية ؟ أن هذا التبرير ليس بكاف ، لانه عند اوائل اليونانيين واوائل الرومان كان العبيد يعاملون بمنتهى القسوة ولم يتحسن شأنهم إلا بمرور الزمن وبتقدم الحضارة .

والحقيقة هى ان المسلمين احسنوا دائما معاملة العبيد لأنهم كانوا فى حماية القانون . سيكون من غير المفيد ان انقل هنا الآيات والاحاديث التى توصى بالاهتمام الشديد بالعبيد ، لأن الدوق نفسه لم يتأخر عن تسجيل هذا : "يكون من الظلم ان لا اذكر ان القرآن فى فقرات كثيرة يأمر بمعاملة العبيد بمنتهى الحسنى" .

ولا يمكن ان اقاوم الرغبة التى تدفعنى لأن انقل صفحة من مجلد المشرع المصرى الفاضل أحمد بيك شفيق عن الرق من وجهة النظر الإسلامية ، هذا المجلد الذى كتب باللغة الفرنسية ثم حفظ فى الجمعية الجغرافية الخديوية ، والذى فى ختامه يقول : "كل الذى نذكره عن الآيات القرآنية والاحاديث وقول العلماء والوقائع التاريخية ، يتلخص فى أن الإسلام بكل تأكيد ، قد قيد الرق بوضع شروط له ، وفى نفس الوقت اشار الى طرق الخلاص منه" . واذا كان يقدر الشخص أن يقع فى الرق برغم هذه الطرق ، فان الشريعة الإسلامية كما رأينا لم تتخل عنه بل تحميه وتشفق لسوء حظه باعتباره كائنا ضعيفا ، وهى توصى سيده بأن يعامله مثلما يعامل نفسه ، وأن يسهر على راحته وان يربيه ويعلمه وأن لا يهينه ، وأن يزوجه لكى يعجل بذلك عتقه .

والعتق الذى لم اذكر عنه الا المعالم البارزة هو حقا صفحة مجيدة في الإسلام . ان أسس الرق فى روح

شريعتنا يجب ان تستأصل ، ولكن كيف نعمل ؟ نهدم من أول ضربة نظاما كان يعتبر جزءا من تقاليد وعادات العالم الخارجى منذ بداية المجتمع ومنذ اجيال ، ان هذا الاجراء كان سيجرنا بدون شك ـ كما ذكرنا فى أول هذا الموضوع ـ إلى ثورة فى النظام الاجتماعى وهياجا بين الناس . ولكن نبينا العظيم الذى كان سياسيا لا يجارى بدلا من أن يثير شعور الناس ضده بقرار يلغى به الرق فورا ، تحايل على الصعاب لكى يصل الى هدفه وأمر المؤمنين بان يعتقوا الرقيق فى ظروف كثيرة لكى يكسبوا الثواب العظيم من الله الكريم . ان كل الجهود كانت موجهة لهذا الغرض ، وكانت مبادىء العتق أيضاً موضوعة بروح عالية كريمة لتسمح للعبد دائما ـ اذا كان يريد أو حتى اذا كان لا يريد ان يجد وسيلة للتخلص من حالة الاستعباد .

يؤكد الدوق داركور فى كتابه أن مصر دائما كانت محكومة حكما سيئا غير سليم ، وأنا فى الحقيقة لن أعارض قوله ، فالمصرى قد عانى كثيرا من الرجال الذين حكموه ، ومن يأخذ جانباً للدفاع عنهم يكون من رأيهم . ومن زمن طويل كانت مصر مستغلة من وحوش بشرية من مختلف البلاد والأنواع وكانت مسرحا لمشاهد محزنة ، أنا اعرف حوادث رهيبة ووقائع لا يمكن وصفها واعرف ايضا اشياء أخرى اكثر هولا .. وانى فى الحقيقة لا اتصور كيف استطاع شعبنا البائس مقاومة مثل هذا الطغيان !

لكن سأمر سريعا على هذه الفترة الطويلة الحزينة التى كانت بين العهد المشرق لمصر حينما كانت تحت حكم العرب ، وبين عصر النهضة الذى بدأه محمد على ، من هذا العهد انتظمت السلطة وفتحت المدارس وجندت الجيوش وأنشئت الأساطيل ، وتفتحت التجارة والصناعة والزراعة على حياة جديدة ، وحفرت القنوات وخططت الطرق ، وباختصار نظمت حكومة حقيقية . ومعلوم أن من وقت لآخر كانت ترتكب بعض أعمال عنف واستبداد ،

ولكننا نلتمس العذر لمحمد على فى هذه الاخطاء التى كفر هو عنها بالحسنات التى فعلها والتى كان فى نيته ان يعملها . وهو يعتبر كأب شديد لا يقدر الفرق بين المعاملة السيئة والتأديب .

وتحت حكمه الطويل ، تهيأ المصريون لتلقى العلوم والفنون وتعلموا أن يحكموا انفسهم بأنفسهم وكانت هذه التجربة كلها فخرا لهم . وهم لم يستفيدوا فقط من الدروس الأولية التى تعلموها على عجل ، بل استغلوا كل مواهبهم وادهشوا العالم الذى فوجىء برؤيتهم يخوضون المعارك بشجاعة وينتصرون .

ولكن إذا كان محمد على ذا عقلية كبيرة ، فانه لا يمكننا ان نقول نفس القول بالنسبة لخلفائه ، فهؤلاء لم يفعلوا شيئا ، بل ولم يصونوا الاعمال التى خلفها والدهم ، وكان الحكم بالنسبة لهم فرصة يستغلون فيها الحكم بالقوة والبطش . وبدون شك سوف يقسو التاريخ على الذين هدموا عملا قيما وخصوصا بالنسبة لإسماعيل ، هذا الرجل الذكى والحاكم الكبير الذى ترك فى نفس الوقت سمعة سيئة لاسرافه . والحقيقة تدفعنى لأن اعترف بأنه بجانب المصائب التى انزلها بالبلاد فمصر تدين له بنشر التعليم وحفر بعض قنوات الرى وتجميل بعض المدن . وفى أواخر عهده الذى جلب الخراب ظهر مرسوم فى ١٨٧٩ بمقتضاه أصبح اسماعيل

يتولى الحكم بمساعدة مجلس للوزراء ، ومن وقتها اصبح لا يمكن اتخاذ أى اجراء الا بموافقة هذا المجلس المسئول حينئذ عن مصالح البلاد . وقبل ذلك كان قد صدر مرسوم آخر فى ١٨٦٦ ، تكونت بمقتضاه جمعية تشريعية انتخبت على درجتين فضلا عن المجالس الاقليمية . وكان يجب على الحكومة ان تستشير هذه الجمعية التشريعية فى تحضير الميزانية وفى طريقة تحصيل الضرائب وفى كل تقنين أو تعديل فى القانون . وبهذه العناصر أعد حكم "شبه دستورى" للخديوى توفيق .

إن هذا الحكم وعد بتحقيق كثير من الآمال السعيدة وقفزت الى ذاكرتنا الاصلاحات الكبيرة التى بدأت منذ ذلك العهد كالغاء الكرباج وتقسيم وتحديد ميعاد دفع الضرائب . والميزان المالى للدولة أصبح مضمونا بفضل قانون التصفية ، وانشىء نظام المراجعة المزدوجة لصندوق الدين العام ، وتعديل نظام التعليم ثم مشروع تعديل نظام المحاكم الأهلية .

وتفاعل الناس جميعا وساروا الى الأمام نحو مستقبل كله أمانى ، وفجأة ظهر عرابى على مسرح السياسة فتوقفت هذه الحركة التقدمية لمدة سنتين . لان هذا الشعب الذى اضطهد لسنوات طويلة عندما أخذ مركزه يتحسن اصبح قليل الاحتمال ، وعندما لمس المزايا آلمته آثار الظلم الباقية فتطلع الى الخلاص الكامل .

لنترك هاتين السنتين المؤلمتين ولنرجع مرة أخرى الى عودة الأمور الى مجاريها فى مصر ، ان سلسلة الاصلاحات تبعث من جديد والتقدم مستمر فى طريقه حتى يومنا هذا . وتم تنفيذ وتحضير مشاريع كبرى للرى ، والسكك الحديدية ومكاتب للبريد والتلغراف تقام فى كل مكان . ويدرس الآن مشروع لتعديل الوعاء الضريبى وعدم المساس بالمساكن واحترام حق الحياة للفرد واصبحت الملكية حرمة ، وألغيت السخرة نهائيا وكفلت حرية الرأى والصحافة وكل ماهو مدون في تصريح "حقوق الإنسان" أخذ المصريون يتمتعون به . وأننى أضع فى المقدمة ، اصلاح القضاء الذى أتى بنتائج طيبة . ويقوم بإدارة محاكمنا الجديدة رجال لهم من التعليم والاستقلال والنزاهة ما يجعلهم فوق الشبهات فى جميع الظروف ، وهم يطبقون قانونا مستمدا تقريبا من قانون نابليون .

وفى الحقيقة فإن عندنا اليوم حكومة محترمة أمينة مصرية . واننى اتحدى الذى يذكر لى ـ لن اقول عملا تعسفيا ، بل أى عمل من أعمال الجباية الجبرية قامت به الحكومة منذ حوالى ١٥ سنة مضت . واصبح الخديوى توفيق ومن بعده عباس يمثلون شخصية الحاكم الدستورى ، اما محافظو الاقاليم الذين كانت لهم سلطة جبارة لم يصبح لنفوذهم الشخصى أى ظل . إن كل عمل الآن يحكمه القانون ، واذكر على سبيل المثال ان بعضهم

قد حوكم جنائيا لانه ضرب احد الفلاحين وكذلك فى جعلهم أقل شأنا من ذلك كل هذه الاصلاحات قد تمت بدون ضجة ، فى الوقت الذى كانت فيه اوربا عندما تمد خطا حديديا أو تبنى جسرا تطنطن صحافتها وتسرع بنشره ونقله الى جميع أنحاء العالم .

هل يعنى هذا انه اصبحت لنا حكومة كاملة المعانى وانه ليس فى الامكان أبدع مما كان ؟ ولا يزال امامنا الكثير لنعمله ، هناك اعادة تنظيم إدارة الاقاليم التى خلت الملجأ الأخير لروح العهد القديم . وهى تدافع دفاع المستميت لتحتفظ بالروتين العتيق ، وعدم الكفاية لا يزال قائما اما الفساد ففى نطاق ضيق . وأننى أنبه حكومتى الى ضرورة قيام تمثيل نيابى حقيقى ولو كان وئيدا .

عدا هذين المطلبين الذين ارجو الا يطول انتظارنا لتنفيذهما فان عندنا كل الامكانيات لإقامة إدارة منظمة ، والرجال الذين يشغلون مختلف الوظائف التى يقوم عليها هذا النظام قد حملوا الأمانة . ولكن هذا الشعب الذى ظل لقرون طويلة فى رقود وصمت لا يمكنه عندما يستيقظ فجأة من سباته العميق ان ينهض سريعا ، فان خطواته تكون مترنحة مثل رجل يقوم من مرض طويل . ولكن نحن نسير دائما وفى كل خطوة تقدم مستمر . وأنى ارجو القارىء ان يؤمن بان هذه الاعمال التى انجزت فى مصر حتى يومنا هذا تعتبر من الاعمال الضخمة التى لم نر لها شبيها فى مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن .

وهل سيقال ان شعبا استسلم لحكم سيىء لفترة طويلة من الزمن لا يصلح لشىء ؟ لكن الجواب على هذا التساؤل بسيط ، جميع الدول مضت فى مراحل من تاريخها بسوء الحكم والإدارة ، جميعها قامت طويلا إلى حد ما من حكم استبدادى ، وجميعها عانت الى حد ما من نزق ملوك طغاة .

حتى يوم ان قامت الثورة فى فرنسا ، لم تثقل الضرائب إلا على غير النبلاء والمعدمين وكانت السخرة مفروضة على الارياف ، وكان ثلث مجموع السكان هم الذين يتولون القيام بالاشغال العمومية ، وهم ايضا الذين كانوا يعملون لحساب الاسياد . ونظام تحصيل الضريبة ضاعف من أعباء الممولين لان الدولة كانت قد عهدت الى بعض الرأسماليين بجمع كل الضرائب وكانوا "يعطون بعض الشىء للملك" على حد تعبير فولتير ، وكان هؤلاء المحصلين بقوة السلطة الحاكمة يبذلون جهودا كبيرة لتحصيل اكثر ما يمكن من الضرائب ، الأمر الذى دفع احد اعضاء البرلمان الفرنسى ليقول : "فى كل يوم نرى بيعا أو حجزا على بعض الفقراء العاجزين عن شراء الملح هؤلاء البؤساء الذين لا يجدون حتى لقمة العيش" .

حتى الملكية حسب نظرية لويس الرابع عشر كانت قاصرة على شخص الملك ، والممتلكات الخاصة للأفراد كانت تعتبر مجرد توكيلات .

وحسب رأى "سان سيمون" فان الفلاحين كانوا يعيشون فى حالة بؤس شنيع ، وكما قال "تين" فى كتابه عن نشأة فرنسا المعاصرة : "ان اغلبية السكان ماعدا اصحاب العزب والملاك ، يأكلون الخبز المصنوع من الشعير ويشربون الماء ويعيشون فى منتهى البؤس ليتمكنوا من دفع الضرائب المفروضة عليهم . ومنازلهم كانت من الطوب النيىء مغطاة بالقش وبدون نوافذ ، والارضية غير ممهدة . ولم يكن لهم من ملبس سوى قطع من القماش المهلهل ، وهناك من لا يلبسون جوارب ولا احذية ولا حتى قباقيب" .

والمحاكمات والعقوبات كانت بقسوة لا تحتمل ، كإحاطة عنق المذنب بطوق من حديد ثم عرضه على الناس أو مكبل اليدين ومربوط فى عمود من الخشب ، والكى بالنار وقطع اللسان أو تقطيع المذنب بربطه فى عجلة تدار والتعذيب بالماء الساخن ثم بربط المذنب فى أربعة خيول .

وفى فجر الجمهورية الأولى ، كان لدى فرنسا حكام ألعوبة فى ايدى المحظوظين من رجال الحاشية والعشيقات المستهترات . كانت محكومة بشارل التاسع المسمى فى التاريخ بالسفاح ، ثم بهنرى الثالث الذى كان يحظى الصغار ، وبلويس الخامس عشر الذى كان يسمى "رجل حديقة الغزلان" ولقد تحملت فرنسا حكما

روحانيا جعل من ملوكها مندوبين مباشرين لله ، فقللوا بذلك من هيبة الله ومن شأن الرجال .

ولعل كلمة لويس الرابع عشر المشهورة "الدولة هى انا" تبين الى اى حد كان مستبداً ، انقل اليكم النطق السامي : "نحن الامراء نعتبر صورا حية لهذا" الذى "هو كله قداسة وكله عظمة" وهو "الذى وهب العالم ملوكا رواداً لهم شرف تمثيله واحتفظ لنفسه فقط بحق حسابهم عن اعمالهم" . و"الذى يولد من الرعايا يجب ان يطيع الاوامر بدون تذمر" الا تدل هذه الالفاظ على مقدار الكراهية المتأصلة التى يبديها نحو رعاياه ؟

ولويس الرابع عشر ايضا هو الذى أصدر فى سنة ١٧١٥ الامر التالي : "بما ان جميع البافاريين اتهموا فى جريمة العيب فى ذاتنا الملكية ، وبما انى اميرهم الوحيد المرسل بأمر الله القادر العظيم فاننى بصفتى هذه آمر بشنقهم . ولكن برحمتنا العالية وبعطفنا الابوى ، فانى آمر بأن تسحب الاسماء بالقرعة ، وكل فرد واحد من خمسة عشر فردا فقط ينفذ فيه الحكم شنقا" . هل وجد فى مصر امثلة كثيرة لهذا النوع من الطغيان ؟ وهل الصورة التى رسمها "تين" لحالة الفلاح الفرنسى لا تشبه حالة الفلاح المصرى فى عهد اسماعيل ؟

إن تاريخ قيام الدول فى جميع أنحاء العالم قد اصبح موضع تفكير مستمر . ويدل دلالة حقيقية على أن الجنس

البشرى فى كل مكان لا يتغير .. بعيوبه وضعفه وبؤسه وايضا بكبريائه وعظمته . والقانون الأبدى الذى يغير المادة هو أيضا الذى يحول الرجال ويغير النظم . ولا يمكن لأى قوة ان تقف امام هذا القانون الذى لا يقهر والذى يدفع الى تطور الإنسانية . وهى تظهر فى كل مكان بنفس الطريقة وتأخذ نفس خط السير . وكل الشعوب استهلت حياتها بالحرية وستنتهى ايضا الى الحرية ، ولكن بين هاتين الفترتين على الناس ان يتحملوا محنة الظلم التى يظهر ان اتقاءها ليس باختيارهم . وان الدول التى يقدر لها ان تعيش بعد ذلك لسعيدة !

كانت دائما صورة المرأة المصرية انها مخلوق ذليل وضعيف فى حالة عزاة مستمرة وكأنها فى حالة عبودية ولا تستطيع الحياة الا في افكار فاسدة . وجاء الدوق داركور بدوره ليؤيد هذا الرأى ولكنه فعل ذلك بطريقة متحيزة افقدت شهادته كل وزن لها .

ألم يقل في فصل من كتابه ان المسلمين كانوا يخفون زوجاتهم من شدة الغيرة ؟ وذهب الى أبعد من ذلك فعلا عندما قال ان هذا التقليد يرجع الى انعدام الأمن فى البلاد ، واضاف ليسند هذا الغرض الجديد بان الاقباط والشرقيين هم الذين أوجدوا هذه العادة ، واخيرا استطرد الى ان هذه عادة ترتبط ارتباطاً وثيقا بالشريعة الإسلامية وانها ليست مسألة شكلية . ومن المستحيل الا يكون قراؤه قد اصطدموا بعدم تسلسل افكاره ويجدون معنى أن الدوق قد حكم على تقاليدنا بدون اية دراسة .

وأعترف بأننى عندما شرعت فى قراءة هذا الجزء من كتابه عن المرأة المصرية ، كنت حسن الظن فى امانة نحو الآداب التقليدية للفرنسيين . اما ان يقول قولا طيبا

أو على الاقل لا يقول الا ماهو حق ، ولكنى وقعت فى الخطأ فلقد وجدت هنا نفس الاخطاء ونفس المبالغة ، التى وجدتها فى باقى اجزاء كتابه ، ومع ذلك فانى ما كنت أرجو له إلا أن يعرف ويقول الحقيقة عن نسائنا . والشىء الذى يستطيع معرفته قليل ، والمصرى نفسه قد لا يستطيع تفهم هذه الطباع المعقدة ولذلك سيكون لى شرف عرضها على القراء .

إن المرأة المصرية أقرب شكلا الى العادية منها الى الجميلة ، ولكنها تتميز بوجه عام وخصوصا فى نضارة الشباب ، بجمال ممتاز يتركز فى انسجام الاعضاء وقوة الجسم . وانه حقيقة مقتنعة بمنظر ترتاح له العين عندما نراها تمشى معتدلة ، صدرها الى الامام وخصر ملفوف وعيون يشع منها السحر ، فلاحة جميلة طويلة القامة نوعا ويديها وقدميها لها منظر منسجم للغاية . ولكن الشىء الملحوظ بصفة خاصة هو عيون سوداء واسعة فيها نعومة جذابة كأنها عيون الملائكة ، وفيها تعبير يفهمه الإنسان قبل ان تتكلم .

ومن الناحية المعنوية فهى مخلوق يهوى الكسل والتأمل بعيدة عن النشاط ، تتكلم دائما وتضحك كثيرا ، وهى تحب دينها ولو أنها قد لا تؤدى الفروض ، ليس لها مُثل اعلى وترتاح للحياة الصادقة ، وهى زوجة مثالية وأم حنون لكنها ضعيفة فى تدبير المنزل . والشىء الذى قد

يدهش القراء ، انها تبدو زاهدة فى الحب .. عذراء قبل الزواج وأكثر عفة بعده ، لا شيء يعكر صفو حياتها ، وتقضى وقتها فى التطريز وفى إدارة اعمال المنزل ولو أنها إدارة إلى حد ما ليست حسنة .

وليس صحيحا على الاطلاق القول بأن المرأة فى مصر تعتبر سجينة داخل المنزل ، فالنساء جميعا يخرجن مثل الرجال فى كل ساعات النهار والليل ويخرجن للنزهة بمفردهن أو فى صحبة بعض الصديقات ، ويتبادلون الزيارات ويدخلن المتاجر لقضاء المشتروات ويسرن فى الاسواق ويرتدن اماكن التسلية ويسافرن فى بعض الاحيان بمفردهن . وأظن اننا الآن بعيدون كل البعد عن الصور القاتمة التى صورها الدوق حينما قال : "ولن يتصور عندنا لمعاقبة الاشرار جزاء أشد من الزامهم بمثل هذه الحياة" .

واجمالا كل ما نفعله نحن الرجال يفعلنه زوجاتنا او يستطعن فعله ، وكل ماهو مسموح لنا يصرح لهن بمثله ، ولكن فى الوقت ذاته كل ماهو ممنوع علينا فهو ممنوع عليهن . مثلا من المحظور علينا نحن الرجال الاختلاط فى مجتمع السيدات ، ويبدو لى طبيعيا ان مثل هذا الحظر يكون على النساء . وأنى اكرر من وجهة النظر هذه أن مركز المرأة يشبه تماما مركز الرجل . ومع ذلك فان احدا من الأوربيين لم تدفعه طيبة القلب الى ان يلتمس لنا العذر نحن الرجال على الحياة التعسة التى نعيشها !

ويمكننا ان نكتب جملا من هذا النوع : الرجال فى الشرق عبيد لزوجاتهم . إن النساء يحبسن الرجال داخل المنازل عندما يخرجن لزيارة بعض الصديقات ويمنعن الرجال من مناجتهن . لا يستطيع الرجال الدخول الي اى مجتمع للنساء . نعم يمكننا ان نكتب كل هذا دون أن نتجنى على الحقيقة وهو الشيء الذى لم نفعله حتى الآن . صراحة .. لست ادرى كيف يتعمد الأوربيون دائما الوقوع فى مثل هذا الخطأ ، ان هذا يعتبر ضعف فى الابصار ولا اريد ان اقول انه سوء نية . ويمكن القول ان عندنا مستعمرات تضم مئات وآلاف من الأوربيين المقيمين فى البلاد ، ويفد علينا فى كل سنة فى فصل الشتاء آلاف من المسافرين والسواح ، الجميع يرون نساءنا سائرات فى الشوارع أو على ظهور الحمير أو فى داخل العربات ولكن كل هذا لا يمنع بعضهم من ان يكتب أو يصف نساءنا بانهن عبيد مسجونات .!

وكذلك أيضا عندما نقرأ لبعض الكُتّاب وخاصة كتاب الدوق داركور يقولون ان نساءنا عندما يخرجن من المنازل يكن دائما فى صحبة الاغوات ، وهذا الوضع مستمد من الامبراطورية الرومانية ، والذى فى كلمة عابرة كان قد صدر الى الشرق الإسلامى واصبح الان لا وجود له تقريبا ، واننى اجزم أن ليس فى مصر اكثر من خمسين اسرة لديها بعض الاغوات ، وذلك كعنوان لمظاهر الترف اكثر منه لحراسة النساء وكعادة قديمة ، ويحتفظ بهم من

باب الشعور بالإنسانية لكى لا يطرد عبد عجوز الى عرض الطريق وهم يقومون ببعض الاعمال مثل الخدم ، ولقد صادفت احدهم يشتغل سائقا لعربة .. وعندما نظرت الى وجهه ، ومظهره الناعم المخنث وخصوصا عند سماع صوته الرفيع ادركت انه واحد منهم ، واستجوبته عن السبب في تخليه عن العمل الذى كان يقوم به فتنهد وقال : "لا يوجد عندنا الآن نساء ياسيدى" ! "واراد ان يعبر بذلك عن ان نساء اليوم اصبحن يتصرفن مثل الرجال .

ومن المغالطة أيضا ان نقول بان نساء اليوم المسلمات يعشن بأفكار كلها فساد . إذا كان القصد من هذا ان نساءنا يمكن ان يسمعن أو يقلن بعض الالفاظ بدون حرج ، فأنا موافق .. ولكن هنا هذه مسألة تربية وتعود واننى اعلم جيدا بأن المرأة الأوربية تعرف حمرة الوجه عندما تريد وهى غالبا ما تريد فضلا عن ان تأثيره عليها لا بأس به مطلقا ! ولكن مما يتنافى مع الحق أن نحكم على الحالة المعنوية لشعب ما بمشاهد من العبث غير المهذب كالأراجوز . إن من معالم العادات الشرقية ما يجعل الرجال والنساء والاطفال يسمون الاشياء باسمائها وهذا لا يدل على اننا اسوأ حالا من الغربيين الذين يقولون كل ما نقوله ولكن فى اسلوب مستتر . فى الواقع أننى لا أجد فارقا ما بين الوضع القائم للمرأة الأوربية وبين الوضع بالنسبة للمرأة المسلمة . إن المرأة الشرقية

قد لا تقوم باى دور مهم وليس لها أى تأثير خارجى . والمنزل هو مملكتها ومن هنا . فهى حاكمة مطلقة .

حقيقة ليس عندنا سيدات محظيات أو نساء يشتغلن بالسياسة أو مؤلفات أو شاعرات يهوين الثناء ولكن هل فى هذا عيب ؟ أقول فى حياء لا .. دون ان اذهب الى حد الرأى القائل بأن عقلية المرأة ناقصة الذى قال به بعض الفلاسفة الأوربيين امثال سبنسر ولمبروزو ، ولن اكون متطرفا مثل شامفور الذى افترض بأن المرأة ينقصها احد الأبراج فى رأسها وانها يزيد لها عصب فى قلبها .! كما اننى لا ارى منفعة تجنيها النساء فى مزاولتهن اعمال الرجال ، بل ارى كل الخسارة فى ذلك ، فضلا عن ان هذه الاعمال تبعدهن عن واجباتهن الاساسية التى خلقن من اجلها ، وهذه المشاغل لا عادت على المجتمع بفائدة اكثر ولازادت مما يتمتعن به من جاذبية . على العكس انه مما يؤثر فى نفسى منظر الام الحنون ، كما يسعدنى منظر امرأة تهتم بشئون بيتها ، ولكن لا يحرك فىّ أى شعور منظر امرأة تتأبط كتابا وعندما تصافحنى تهز يدى هزا عنيفا وتصيح : كيف حالك ياعزيزى ؟ أو بالاحرى قد أحس نحوها بشعور يغلب عليه عدم الاستلطاف .

النساء الكاتبات أو المشتغلات بالسياسة وأنا لا اتكلم الا عن محترفات التجارة فى الأدب ، هل هن نساء حقا ؟ وهل لا يوجد فارق بين تلك المخلوقات اللاتى قرأن وسمعن وفعلن كل شىء دون خجل ، وبين الملائكة اللاتى

تكفينا منهن نظرة او كلمة او هزة يد خفيفة ، لتبلل اعيننا بالدموع وتجعل قلوبنا تخفق من النشوة . ولكن دعونا نتفاهم .. اننى اذا كنت أشمئز من النساء المتحذلقات غير أنى من انصار التعليم المناسب للمرأة . واقرر ان النساء المصريات نشأن فى منتهى الجهل . ويجب على المرأة دائما أن تكون ملمة بما يكفى لتعليم اطفالها مبادىء الاخلاق والصدق والتقسيم العلمى للأشياء التى تحيط بهم ، كما يجب أن تحسن الاجابة بدون خطأ على اسئلة الاطفال التى لا تنتهى . انى لأتمنى ان تعم هذه التربية عندنا .. وبدونها فاننا لا نأمل مطلقا فى ايجاد مواطنين صالحين ، وفى هذا الموضوع اننى اعطى الحق للدوق داركور ولن اجادل فى الاعتراف بنقص المستوى العلمى للمرأة المصرية بالنسبة للمرأة الأوربية .

ولكن هذا النقص لا يرجع الا للجهل والى سوء التربية الذهنية ، ولذلك فان نقص التعليم جعل المواطن المصرى فى مستوى اقل من نظيره فى أوربا . واذن فهذا النقص لا يرجع الى الشريعة الإسلامية ولا الى التقاليد الإسلامية وانما يستند الى اهمال فى تعليم المرأة حاليا ، وهذا الاهمال لم يكن قديما بدليل وجود كثير من النساء الشاعرات والكاتبات اللواتى اشتهرن فى صدر الإسلام . وان ما نراه حاليا ليس الا حالة ركود يجب أن تزول قريبا . ولذلك سوف اختلف هنا مع الدوق داركور الذى لا

يرى فى نسائنا غير بائسات وضحايا للنظم الاجتماعية الإسلامية .

وسبق ان قلت ان نساءنا يتمتعن بالحرية المطلقة فى تصرفاتهن . ومن ناحية أخرى ، يمكن القول بان المركز الذى وضعه الإسلام للمرأة له كل المميزات التى كانت تتمناها المرأة . فالمرأة المتزوجة تتمتع بكل حقوقها المدنية وهى كفء أو أهل حسب المعنى القانونى للكلمة لأن تقوم بالتصرف والإدارة والتعاقد بدون حاجة للحصول على موافقة من زوجها او من المحكمة . وتستمد هذه الأهلية من شخصيتها الذاتية ، وليس لهذه القدرة الا تفسير معنوى بحت . وعندما تريد البيع أو الشراء أو التنازل أو القبول أو رفع دعوى قضائية فانها لا تشاور الا نفسها بعكس المرأة الفرنسية التى لا يمكنها أن تقوم باى اجراء من كل تلك الإجراءات الا اذا ارتاح له زوجها الذى هو صاحب السلطة عليها . ان المرأة الفرنسية عندما تتزوج تصبح مخلوقا قاصرا فى نظر القانون الذى يحكمها تعتبر غير ذات أهلية فيضعها تحت الوصاية ، وباختصار فانها محرومة من التصرف فى ثروتها الخاصة .

هاكم أشياء لا يمكن للمسلم ان يقبلها ، وكل الأسباب التى ابداها لى استاذى عالم القانون المدنى فى جامعة "مونبلييه" لتبرير الحط من شأن المرأة لم اقتنع بها ولن يقتنع بها الا الازواج الذين لهم منفعة فى ذلك .

إن نساء اوربا لهن الحق فى التفكير بان الرجال قد وضعوا القانون لمصلحتهم ! ولست فى حاجة الى القول بأننا نتمنى النجاح الكامل للنساء الجريئات اللواتى يكافحن بكل شجاعة للخروج من هذا المركز المهين لبنات جنسهن ، ولكى يمارسن جميع حقوقهن المدنية .

إن الفتاة المسلمة لا يتطلب منها عندما تريد زوجا كفؤا لها الا شيئا واحدا هو ان تكون على خلق كريم وطبع مستقيم ، وبذلك مهما كانت الفتاة فقيرة او على نسبة قليلة من الجمال فانها تجد دائما زواجا موفقا واحيانا زواجا غير متوقع . وسبق ان بينت ان آراءنا لا تتأثر بمظاهر الحسب او الثروة ، ولذلك فليس من النادر ان نرى زواجا يتألف من رجل ينحدر من أسرة كبيرة وامرأة من الشعب .

اننا لا نسأل المرأة مطلقا عما تمتلك ، ولا نناقش ايضا قيمة المهر مع والد الزوجة ، فان المهر تستخدمه المرأة فى اتمام جهازها ، والمرأة ولو كانت غنية لا تتحمل اى عبء من اعباء الزواج ، وفى كل الاحوال يتولى الزوج مطالب الزوجة والاولاد . وهل من المستغرب بعد ذلك ان نلاحظ فى الشرق ان كل امرأة لها زوج بعكس الحال فى اوربا التى تزدحم المنازل فيها من كثرة عدد العانسات ..!

من الاشياء التى أثارت دهشتى عندما حضرت اول مرة الى فرنسا ، أنى وجدت نساء قد جاوزن سن الخمسين يطلق عليهن لفظ "آنسة" ولم اكن رأيت هذه

الاعجوبة فى مصر . لابد ان حياتهن كئيبة فكم سكبن من دموع وكم من ود مفتور وآلام مبرحة وكم من مرارة وحقد وتشاؤم فى هذه النفوس الوحيدة ، وكم من شهوة وحب وامومة وتضحيات مختزنة فى هذه القلوب التى لا تزال مع ذلك تنبض دائما .. لماذا هذه الانانية من الرجال فى أوربا ؟ ولماذا يفرضون على النساء المهر الثقيل وهن لا يملكن شيئا ؟ وكيف بعد ان اقفلت فى وجه المرأة جميع الوظائف وجميع الحرف وجميع الاشغال ينتظرون ان يكون معها مال ، هل فى هذا شىء من المنطق أو الإنسانية ؟ آه .. اننى عندما اتمعن شريعتنا فاننى احبها وأتعلق بها أكثر ، فهى وحدها اكثر من غيرها قد أوجدت أوضاعا عادلة وهى وجدها قد تمكنت حقيقة من حماية الضعفاء ، وهى ايضا بمفردها امكنها ان تساير الطبيعة ، وهى وحدها أيضا انقذت الزواج من ان يكون عملاً وان لا يكون صفقة تجارية أو شركة استغلالية .

وختاما فانى اضيف الى كل ذلك بان مبدأ الشريعة المستمد من الحديث الشريف لنبينا محمد "ان الجنة تحت اقدام الأمهات" لا يمكن ان يكون تشريعا همجيا مهما قالوا عنه ولا يأمر مطلقا باستعباد المرأة .

المفروض عند جميع الأوربيين ان تعدد الزوجات يعتبر نظاماً فاسداً . وهناك بعض آراء لا تستند لمنطق أو لتفكير سليم تقول بان نظام تعدد الزوجات موضوع لا يجب التحدث فى شأنه اذ كيف يكون لرجال زوجتان فى وقت واحد ؟ ان هذا لفظيع .. والاولاد ماذا تفعلون فى امرهم ؟ إن هذا أمر يتنافى مع الخلق الخ .. وأظن أن هذا هو شعورهم الحقيقى لان جميع الشرائع الأوربية اعتبرت تعدد الزوجات جريمة يعاقب عليها بالاشغال الشاقة .

وأننى لسعيد باتاحة هذه الفرصة لى حتى اسجل رأيى فى هذه المسألة ، وسوف ابين للأوربيين بان "اللفظ" فى الحقيقة هو الذى يزعجهم اكثر من "المعنى" .

لقد ترددت كثيرا على المجتمعات الأوربية فى فرنسا وفى مصر ، وقد لاحظت ان الإنسان اذا اعطى يده اليمنى مرة واحدة فى حياته ، فلن يفعل كذلك بالنسبة لليد اليسرى ، تمد وتسحب من الصباح الى المساء أو على الأصح من المساء للصباح ، وفى معظم الاحيان لن ترفض ! وهكذا الحال فى المنزل المزدوج . وفى هذه

القسمة ، كما تعلمون جيدا ، لن يكون للمرأة الشرعية نصيب الاسد ، وفى كل تسع مرات من عشرة تنكشف الخديعة وتعلم الزوجة مدى نصيبها من التعاسة أو السعادة حسب تكييفها وهذا يسمى ضعفاً أو سقطة أو حدثاً عارضاً .

ولكن ، في الحقيقة ، من هو هذا الزوج ؟ انه رجل مزواج .. واذا كانت علاقاته مع الآخرين لم تثمر ، فهو يفضل ان يمنع وجود الطفل بجريمة ، او يتركه يستسلم فى حياته للبؤس وللعار ، لانه بلا جدال لا يوجد للطفل خارج الحياة العائلية وكذلك بالنسبة للمرأة غير الذل والاجرام . والمشرع الفرنسى اراد ان يتجاهل هذه الأشياء واقفل عنها عينيه ، وظن انه قد فعل كل شىء عندما قرر ان تعدد الزوجات جريمة وارتاح نفسانيا لقيامه بهذا الواجب .. فعلا ان العقوبة شديدة ولكنها أيضا افلاطونية .

وهل تجد كثيرا بين الرجال من يمكنه ان يتخذ له امرأة خارج نطاق الحياة الزوجية (مع اشراك العادات فى هذا الجرم الذى يرعاه القانون) ويكون له بقية من ضمير فيقول : انى اعلم جيدا ان التقاليد تنفر لى وان القانون يحمينى ، ولكنى لا اريد ان استغل ضعف المرأة ولا اريدها غير زوجة شرعية امام السيد عمدة البلد .! لا .. ليس كذلك ؟ واذا كنتم تريدون الدليل ، فمنذ عشر سنوات وأنا أتابع طريقة المحاكمة الفرنسية لجريمة تعدد

الزوجات فلم اجد انها قد بحثتها غير مرة واحدة .

والآن ، فلنناقش المبدأ الذى وضعه المشرع الإسلامى . بعد ان انشأ تقاليد لحماية الرجل والمرأة ضد ضعفهم ، قال ان المبدأ الا تأخذوا الا امرأة واحدة ، واننى انصحكم بهذا لراحتكم . واذا جد بسبب أو لآخر ما يعكر صفو الحياة الزوجية فيمكنكم ان تأخذوا امرأة أخرى ، ويمكنكم ايضا اذا كنتم لم توفقوا ان تأخذوا ثالثة أو رابعة .. ولكن اعلموا جيدا اننى لا اسمح لكم بذلك الا تحت الضرورة الملحة ، وإنى ألزمكم واشرط التزامى بعقوبات شديدة .. وهو ان تعاملوا هذه النساء بمنتهى العدل ومع مراعاة المساواة الحقة ، وليكن جميعا زوجات فى مرتبة واحدة ولتقوموا بجميع التزاماتهن ، والاطفال الذين يولدون منهن هم اولادكم تسهرون على تربيتهم بيقظة تامة وعلى قدم المساواة . هذا اذا كانت لديكم المقدرة الكافية للقيام بكل تلك الواجبات المتزايدة المختلفة ، واذا كنتم امام ضرورة ملحة تنتظركم لان تجمعوا بين أكثر من زوجة ، والا فواحدة هذا خير لكم . تلك هى بنود الشريعة فى شأن تعدد الزوجات طبقا لنصوص القرآن وحسب توصيات فقهاء المشرعين .

وكما نرى نجد ان مبدأ الجمع بين الزوجات يقدم لنا على انه كالشر الذى لابد منه ، وهو محاط بصعوبات

عسيرة تجعل تطبيقه نادرا ، وتتميز جميع الاحتياطات التى من شأنها تخفيف الآثار السيئة التى تنتج عنه . والآن ولكى أوضح رأيي سوف افترض حالة واعرضها على القراء .. لنفرض أننى تزوجت منذ عشر سنوات بامرأة تشدنى اليها روابط العشرة والمعزة ، واكون واحدا من الذين يتزوجون لتكون لهم ذرية ، وبرغم كل الجهود فان زواجنا لم يثمر .. واذا شرعت فى طلاقها سيعتبر هذا العمل من جانبى قسوة ، ولكن من العسير عليّ ان اترك المرأة التى احبها والتى لا يوجد لها سند غيرى فى الحياة ولا يمكن ان اتركها إلى مصير تعس .. وبعد صراع نفسى فاننى اقرر ان اتخذ لى زوجة ثانية مع احتفاظى بالزوجة الاولى ، فهل هذا يعتبر عملاً طيباً أو فعلاً سيئاً ..؟

واليكم فرض آخر اكثر حساسية ، اننى تزوجت وفى اليوم التالى لزواجى أو بعد مضى قليل من الوقت أحسست ان الزوجة التى ارتبطت بها ليست هى مثلى الاعلى .. فخابت آمالى وأصبح مقضيا عليّ بأن احيا حياة تعسة كصاحب كل قلب خال ، ومن ثم اجد نفسى فى ظروف تدفعنى الى الحب إذا ما صادفت شابة او ارملة تجذبنى وتحيطنى بهوى عنيف فأشعر بالسعادة واستسلم تدريجا لهذا الحب المتبادل .. ماذا يكون موقفى كرجل مسلم طيب ؟ اتخذها زوجة كريمة واكفل لها العيش الكريم واضمن لها ولأولادها مستقبلا شريفا

وبحسب الشرع سيكون لى زوجتان ، ولكن الاخيرة ستكون اقرب الى قلبى .. وماذا تظنون فى مصير الزوجة الاولى ؟ أحد أمرين : اما ان تكون فى غير حاجة إلىّ لتعيش فتسرع بمغادرة المنزل بكرامة لتنهى بكبرياء العلاقة الزوجية ، أو تكون للأسف فقيرة فترضى بالاستمرار لتشارك فى المأوى الطيب والمائدة الطيبة .. الخ .

والان بما انكم علمتم الطريقة التى يتصرف بها الرجل المصرى فى الحالتين .. فلنر ماذا يفعله زوج أوردبى فى مكانه .. آه .. انها مسألة ليس فيها اختيار ، سيتخذ من هذه الشابة أو تلك الارملة عشيقة فى وضوح وسهولة ، وبذلك يوجد للمخلوقة التى كان يعزها ولاولادها مصدرا للفضائح وللعار والبؤس لا ينتهى ..!

وفى اجمال كما نرى ، فان مبدأ تعدد الزوجات قد تقرر ليضمن للمرأة المأوى وللأولاد ابوة صحيحة دائما .. اما مسألة الطفل الطبيعى فهى انتاج غربى بحت لا يمكن ان يتأقلم عندنا . ان جرائم الاجهاض وخنق الأطفال التى تحدث فى فرنسا بالملايين سنويا ، لا يوجد اى سبب لها فى مصر . وهذا يعفينى على ما اظن من مناقشة موضوع ما إذا كان الرجل بطبيعته مزواج ام لا ، ولست فى حاجة لأن اذكر المسيحيين بأن المسيحية قد سمحت ولزمن طويل بتعدد الزوجات فى روما ، وأن بعض القساوسة صرحوا به ومارسوه وان عددا كبيرا من الملوك كان لهم

اكثر من زوجة .. وعلى القارىء الذى يريد أن يتعمق فى هذه الدراسة أن يلجأ الى بعض الموسوعات التى كتبت فى هذه الموضوع .

وقبل ان أنهى هذا الموضوع أريد أن اقول كلمتين فى وضع الاولاد فى منزل يضم اكثر من زوجة ، اننا نتصور عموما ان الاولاد الذين انجبتهم امهات مختلفات يجب ان تسود بينهم دائما الكراهية والمشاجرات من الصباح الى المساء . غالبا لا يحدث شىء من هذا فهى مسألة تعود ، هل لا يوجد فى فرنسا اولاد من امهات مختلفات ويعيشون فى منتهى الانسجام بعد وفاة أو طلاق احد الوالدين ثم يتزوج احدهما مرة ثانية ؟ اذن فهذا نفس الشىء ، ولننظر ما وراء هذه الحالة لنعرف ما اذا كانوا فى مصر يستحملون أو يستغلون موضوع تعدد الزوجات .. انى اؤكد أن عدد حالات تعدد الزوجات فى مصر نادر جدا . فى الريف نجد الفلاح غالبا لا يتزوج الا مرة واحدة وقد يرجع ذلك الى انه لا يكسب الا القوت الضرورى . وفى المدن لا يزال بعض رجال من العهد القديم يجمعون بين اكثر من امرأة . والموظفون بوجه عام لا يتزوجون الا بامرأة واحدة لان غالبيتهم من الشباب المثقف الذى احتوته الافكار الحديثة . واذا كان يقدر لاحدهم ان يقع بالصدفة تحت تأثير العيون الجميلة ، فانهم يتخذون من صاحبتها عشيقة ويمارسون تعدد الزوجات على الطريقة الأوربية ..!

كثير من المفكرين فى فرنسا بدأوا اليوم يتنبهون إلى مشكلة "الطفل الطبيعى" ، هؤلاء المشردون الذين تغلق فى وجوههم ابواب الحياة بعد مولدهم ودراسة وضع هؤلاء البائسين هى الآن الشغل الشاغل للمشرعين الفرنسيين . ان العقليات الضيقة التى كانت تحمل الطفل البرىء وزر اخطاء ارتكبها غيره محافظة على كيان الاسرة ، بدأت تتلاشى تدريجيا بعدما طالب "اسكندر ديماس" ومن تبعوه بعد ذلك صارخين من هذا الظلم .

وجميع هذه الجهود سوف تصل يوما الى مساواة الاطفال الطبيعيين بالاطفال الشرعيين ، ولكن بعد مشكلة الاطفال الطبيعيين فان المفكرين سوف يهتمون قطعا بمشكلة "الفتيات الامهات" لان مصيرهن يستحق كل اهتمام وشفقة . وبعد ، أليست هذه دلائل ترى أوربا من خلالها أن العالم الإسلامى قد وجد حلا قاطعا لمشكلتين اجتماعيتين بفضل تعدد الزوجات ؟.

"عامل زوجتك دائما بالمعروف ، واذا كنت تكرهها فاذكر قول الله « عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم »" . "واذا كنت على خلاف مع زوجتك فاختر حكما من أهلك ولتختر هى أحدا من اقاربها فان الصلح خير" . "ان ابغض الحلال عند الله الطلاق" . هذا ما قاله الله ونبيه لنا عن الطلاق .

انه بذلك يوصينا ليس فقط بعدم التعنت بل ايضا بعدم الالتجاء الى الطلاق الا عندما نكون قد أعيتنا جميع الطرق للتصالح ، انه علاج غالبا ما يكون أصعب من الداء ، ولكنه مثل كل علاج قد يكون فيه الشفاء . ان الانفصال يحدث كل ضيق فى النفس ويتخلله صرخات الألم ولكنه ينقذ حياتنا فى بعض الاحيان . والمشرع الإسلامى قد ترك حرية التصرف فى هذه المسألة الخطيرة للمخلوقين الذين يهمهما الامر ، فهى حياتهما وسعادتهما ومستقبلهما التى فى كفة الميزان ، ومن هنا وتحت هذه الصفة فهما وحدهما اللذان يستطيعان تقرير مصيرهما . فقد عاشا مع بعضهما وتبينا ما فى اعماق نفوسهما ولا يخفى على تقديرهما اى تفاصيل ، واليهما وحدهما معرفة ما اذا كانت الحياة المشتركة بينهما

محتملة أم لا ، وبمحض اختيارهما يستطيعان ان يقررا الوضع الصحيح .

واننى لا أستسيغ مطلقا الالتجاء للقضاء لينظر فى حالة الطلاق . ان ترابط النفوس ليست مسألة قضائية كحائط مشترك بينهما . وماهى المحاكم التى تتحكم فى شعور قلبى وتقيده . هذا القلب الذى كثيرا ما يتغير وله نزوات مستمرة ؟ وهؤلاء القضاة ماذا يعلمون عنى وبأى مستندات سيفصلون فى امرى ؟ ان شخصيتى هى موضوع القضية ، وهى إلى هذا الحد صعبة ومعقدة حتى تتطلب سنوات ليتعرفوا عليها فيحاكموها .

حقا ان الحضارة الأوربية الساطعة فيها بعض البقع مثل الشمس ، وهذه بقعة كبيرة ، لانه لو فرضنا أن هؤلاء القضاة امكنهم ان يلموا بموضوع الخلاف وقدروا المسائل تقديرا سليما ، فاني لا ارى منفعة يجنيها المجتمع من اطلاعه على تفاصيل حياتي وحياة زوجتي الخاصة معروضة علانية أو منشورة على صفحات الجرائد . من الذى ينتفع من كل هذا ؟ لاشك انهم المتفرجون الذين سيجدون كل متعة فى مرافعات المحامين الطريفة المثيرة والتى سيقدمونها حسب المبلغ المدفوع لهم ! ان حق الطلاق الذى وضعه المشرع الاسلامى بين يدى الزوج والمرأة التى يرجع اليها

أيضا ، ليس مسموحا به فى فرنسا الا فى ثلاث حالات فقط ويرجع فيها عادة إلى تقدير المحاكم .

والآن بعد ان قلت رأيى فى تدخل القضاء فى مسألة الطلاق ، فلننظر هل أساء المشرع الإسلامى عندما صرح للأزواج بطلب الطلاق وقتما يريدون . اظن ان هاتين المسألتين مرتبطتان ولكن يمكن تقدير كل منهما على حدة . مبدئيا أظن ان حرية الطلاق شىء حسن ، فهى تقوى روابط الزواج ولا تضعفه ، وتبين للزوج الذى يفكر فى ان يتصرف تصرفا سيئا الخطر الذى يتعرض له ، وهى تتبنى المبادىء الخلقية السليمة وتهذب الاخلاق وتدعو للتسامح المشترك . انها مثل سيف "ديموقليس" مسلط على رؤوس الازواج ..!

اننا فى الزواج نصادف أحيانا مفاجآت غير مقبولة وأوضاعاً غير محتملة ، ولذلك يجب ان يبقى باب الخلاص دائما مفتوحا . وليس فقط الزنا أو المعاملة السيئة هى التى تبرر الطلاق ، بل يوجد أيضا الشك المؤلم وعدم الاستلطاف الذى يجعل كل ذرة فى جسمها تتباعد بقوة لا تتوقف ، ويوجد ايضا عدم الانسجام فى الاخلاق الذى ينفر الطرفين من بعضهما ، ويوجد أيضا عدم الرقة التى تجعل الإنسان يتعذب اكثر من المعاملة السيئة ، ويوجد نوع من "الزنا المعنوى" يجرح ويؤلم اكثر من الزنا الفعلى . ويوجد أيضا طباع سيئة وشريرة وجحودة

وعقليات سخيفة وحالات هستيرية ورجال اشرار ونساء قاسيات وامهات فقدن العاطفة . نعم يوجد كل هذا واشياء اخرى كثيرة اشد هولا لا يمكن للشريعة ان تلم بها او تحصيها . ماذا تفعل الشريعة الفرنسية عندما تعرض عليها حالة طرف من الطرفين اكتشف فى الطرف الآخر نقيصة من العيوب الخفية ؟ إنها توصية ان يتذرع بالصبر حتى الموت من أجل مصلحة الأسرة .

ولكن أيها المشرعون العقلاء ، ألم تروا ان ميكروب الاسرة الهدام قد ظهر وتغلغل ووجد ارضا خصبة يترعرع فيها ، وان العدوى تبدد بالانتقال الى الاولاد ، وان الانفصال السريع يمكنه فقط ان يمنع كارثة لا تقدر ..؟ وهل تظنون انه من الحكمة وبدون خطر على الأولاد ان يحضروا يوميا مشاهد محزنة لبيت مفكك وربما يجدون امامهم أمثلة سيئة ؟

اننى اعلم لحسن الحظ ان الازواج فى فرنسا اعقل من المشرعين .. فانهم يصلحون من احكام القانون بطريقة حكيمة .. واننى اعرف عدداً كبيرا من الازواج حصلوا على الطلاق بالتراضى ووضعوا انفسهم بمحض ارادتهم فى ظرف من الظروف التى يحكم فيها القانون بالطلاق أو بادعاء اسباب تبرر موقفهم .

واننى اختتم كلامى بان اقول للدوق داركور انه يخطئ عندما يحاول ان يقنع القراء بان المرأة المصرية بوجه

عام عندما تكبر فى السن فإن زوجها يتخلى عنها ، وهذه واحدة من تأكيداته الباطلة التى لا تستند الى أى اساس .

في المجتمع الأوربى ، الرجل والمرأة دائما على اتصال مباشر ، ومن هنا تولد أواصر المعرفة والصداقة والحب . هذا الاختلاط بين الجنسين فى المجتمعات يجعل لها لذة وجاذبية ممتعة . ان السحر الذى تبعثه المرأة اينما وجدت ناعم وأخاذ مثل عبير الورد ، ويجد الإنسان اسباب التسلية فى هذه المنتديات فيلاطف النّاس بما يدخل النشوة فى قلبه .

واني استطيع الآن اكثر من اى وقت آخر تقدير هذه الجاذبية النادرة عندما يكون المرء فى صحبة سيدة تجمع بين الذكاء والجمال . ولما كان فى طبيعتى الخجل فقد اضطربت واحمررت اكثر من مرة ولذلك لم يكن لى نجاح ملحوظ بين الناس ، ولكن هذا لم يقلل من ارتياحى لتلك الاتصالات المحببة حيث يجد الإنسان نفسه فى وضع يتبادل فيه اسباب التسلية والترفيه مع الآخرين .

ويبدو حسب الأفكار الأوربية ان تمتع الإنسان بالسعادة بمفرده ليس وضعا مقبولا . فالرجل المتزوج من امرأة جميلة ويريد الاحتفاظ بها لنفسه فقط يستخف شأنه ، إذ يجب ان يسمح لها بالمساهمة فى اسعاد

اصدقائه ! والمفروض ان اصدقاءه سوف يمزحون معها ويحاولون اكتساب قلبها بالتقرب اليها ، والزوج فى هذه الحالة لا يهتم مطلقا ويعاملهم على انهم كمية مهملة . وهؤلاء جميعا شباب ذوو شهامة ، بعضهم من اصدقاء الطفولة وكما نرى لا يوجد شىء جدى فى كل ما يجرى انما هو مجرد لهو وحب . ومن الطبيعى وفى الوقت نفسه ان يهتم الزوج ايضا بزوجات اصدقائه فيعاملهن بنفس الأسلوب ويلاطفهن بأدب ويوجه لهن نفس عبارات الغزل .. وهذا هو المرح المزدوج .

هل مثل هذه العلاقات تكون دائما خبيثة ؟ ان بعض الظن اثم . يوجد بلا جدال اخلاق عالية ونفوس قوية تتحكم وتحلق عاليا فى سماء من المبادىء الصافية . ولكن الى جانب هذه القلة المشرقة ، لابد ان تجد نفوسا تنقصها الفضيلة ويخبو ضوؤها فى هذه الريح العاتية ، وهناك كثير من الشرف ضاع بين عاصفة من التصريحات الغرامية وكثير من القلوب احترقت بنار الغرام والهوى . ان المرأة كما هو مفهوم معبودة تتطلب الثناء ، والتصريحات الغرامية هى المراسم التى تمارس عن طريقها عظمتها ولكنها اله كله رحمة ، لانها تستجيب دائما للتضرعات التى تقدم اليها . انها لا تشبه مطلقا آلهة القدماء الشريرة القاسية فى غير رحمة ، التى لا تستمع لمن يسألها شيئا ، ولها قلوب متحجرة لا تؤثر فيها الدموع مطلقا .

ومن المعروف عن الرجال (واعتذر الى بنى جنسى) انهم انواع مختلفة من خاطفى القلوب . لا يتورعون عن الكذب وعن الاعمال الدنيئة والدسائس والخيانة ، ليصلوا الى المرأة التى يشتهونها وغالبا يكون ذلك ببرود لا تشوبه عاطفة . ويستقبل شخص ما باخلاص من صديق حميم ويستضيفه على مائدته ويقدم له كل الخدمات فيقابله بطعنة مميتة فى شرفه ، دون أن يفكر لحظة فى دناءة العمل الذى ينوى ارتكابه ولا فى العواقب الوخيمة التى تنتج عنه .. ويسير قدما ، وكلما كانت الموانع كبيرة بذل جهدا اكبر للفوز بمأربه . وفى الحقيقة ما اتعس هذا الفوز الذى يتولد عن تدبير دنىء والذى ينتهى بفعلة مهينة .

فى مثل هذه الأحوال هل من المعقول ان نصرح باختلاط الرجل بالمرأة بدون خطر على هناء الأسرة أو على سبل المحافظة على الاخلاق ؟ ان شريعتنا تقول لا . إن للرجال عندنا مجتمعات تحرم على المرأة ، وللنساء اجتماعات لا يخطوها الرجل ، وهذا ما توصى به شريعتنا ، وقد ارادت بذلك ان تحمى المرأة والرجل من ضعفهم وأغلقت نهائيا منبع الشر ، لأن الفرص الملائمة ـ كما يقال ـ تسهل للص وتدفع ايضا الى الزنا . إن الحب المفاجىء او كما يسمونه حب الصاعقة لا يكاد يوجد فى الحياة العادية . وبوجه عام ، فان الحب يولد من

العشرة ومن اعتياد الرؤية فينشأ التعارف . وكلما تكرر الاتصال كان العرض للحب وكلما اقتربت النار من البارود تهيأت الفرصة للاشتعال . اننى اعلم جيدا انه يجب علينا ان نأخذ فكرة طيبة عن الجنس اللطيف .. وان النساء اللواتى يعرفن مقدار جمالهن يعرفن ايضا كيفية الدفاع عنه . ولكن فى النهاية فاننا لا نجد قلاعا لا يمكن الاستيلاء عليها لانه بعد المعارك الكبيرة لابد أن تدق ساعة التسليم . انها مسألة صبر وتخطيط وتدبير .. وبعد ذلك عندما يهزم احد الغزاة فان الاكثر مهارة هو الذى ينتصر . والمهم ان يكون الإنسان فى ظروف ملائمة النجاح ويختار الوقت المناسب للهجوم النهائى لا اكثر ولا أقل .

ويجب ان نعترف بان تقاليد بعض الطبقات الأوربية قد ضاعفت مع القدر المناسبات التى تسهل هذا الانهيار - مثل بعض التجار الذين يعملون كل مافى وسعهم لتصريف بضاعتهم - ولم يهمل شىء يساعد على ذلك .. فمن نزهات طويلة بعيدة عن العزال فوق الحشائش الخضراء الناعمة .. الى حمامات البحر التى ترتدى فيها المرأة لباسا على جسدها مثل القالب الذى يفسر كل شىء مستور وترتمى فى احضان صديق يعلمها السباحة .. الى موائد شهية فيها النبيذ الذى يفك عقدة اللسان ، وحيث تتقارب الركبتان وتتلاعب الاقدام فى نعومة تحت المائدة ، خصوصا الحفلات الراقصة التى

تلبس فيها النساء ملابس تكشف عن اكتافهن وتنبعث منهن الروائح المسكرة ويستسلمن لأحضان الرفقاء فى حلبة الرقص .. آه .. اننى اعلم ان كل هذا لذيذ جدا وان الذى لا يحبه لا يكون رجلا وخصوصا اذا كان زوجا .!

وكذلك فهناك أخيرا حالتان ، الاولى اذا كان شخص يحب زوجته بحنان وشغف فإننى لا أجد تفسيرا لكل هذا الاهمال المطلق ، فإن الغيرة هى جوهرة الحب ولا يمكن أن يوجد هذا الهدوء فى المشاعر عندما نحب حقيقة ، بالعكس فاننا نغار من شخص ومن كل شىء ، انها حياة متقلبة أكثر ما فيها من مرارة هو فى نفس الوقت أحلى ما يمكن للقلب البشرى معرفته . اما اذا كان شخص لا يحب زوجته فهنا الكرامة تبرز بكل معانيها ، شخص غير محبوب نعم ، ولكن ان يكون موضع سخرية وان يكون الشخص الذى تريه زوجته من كل لون فيرى فى اسرته اشخاصا غرباء يدخلون ويتخذون صورا حية أمام رب المنزل ، فهذه اوضاع هى فى الغرب كما هى فى الشرق لابد ان تثير كرامة اسهل الأزواج . ان أغلب المبارزات وجرائم القتل التى تقع فى فرنسا اذا لم تكن بسبب الخيانة الزوجية وليست غالبا بسبب الحب انما تكون بسبب الكرامة .. انها مسألة الشرف التى تجعل هؤلاء الازواج يحملون السلاح لان قلوبهم وقتئذ تكون فى مكان بعيد .

وبعكس العادات الأوربية ـ التى يظهر انها خلقت لكى تجعل اللذة هى التى تتحكم فى هذه الدنيا الوضيعة كما سحبت ـ فان عاداتنا قد استمدت مبادئها من الفضيلة الزاهدة ، ولذلك فالمطلوب منا التضحية بالملذات .. ومنذ آلاف السنين ، وهذه التضحية الكبرى يمارسها المسلمون يوميا . والشيء الغريب حقا ان فى الحياة الإسلامية يوجد ذوو الافكار الحرة والكفرة والمتشككون والماديون ، ويوجد كثيرون اختاروا فى جميع تفاصيل حياتهم العادات الأوربية ، ولكن لا يوجد ولن يوجد مطلقا مسلمون يقبلون ان يكونوا ازواجا حسب العادات الأوربية ، ولكى يستسيغوا هذا السلك ربما ينتظرون تطبيق شريعة فوضى العلاقات على الناس جميعا .

نحن نحس جميعا ان لدينا نظاماً يقوى رباط الزوجية . فاننا لا نعرف نساء غير نسائنا ، ونساؤنا لا يعرفن رجالا غيرنا ، وبما ان فى طباعنا طيبة فمن الصعب ان لا نتفاهم ولا شيء يعكر صفو حياتنا ، والتوافق اذا قام على اساس يكون مستمرا ، والدوافع السيئة والمغريات الخارجية لن تصل الينا . هذه حقيقة يجب على الأوربيين ان ينتهوا الى الاعتراف بها .

يجب ان يعترفوا بأننا عندما نتزوج نتقدم لزوجاتنا بروح جديدة وبقلب اكثر حنانا وبشعور اكثر نضارة عنه . ان الزواج عندنا يعتبر بداية بعكس الحال عندهم فانه

يكاد يكون دائما نهاية . ان خيبة الأمل التى تحس بها الفتاة الأوربية المسكينة بعد الزواج عندما تكتشف أن زوجها عنده استعداد طيب للاستقرار والراحة ، لا تقارن بالسعادة الحقيقية التى تبديها الزوجة المسلمة عندما تجد فى زوجها مثل هذا الاستعداد . فهى لم تعتد التردد على الحفلات الراقصة ولا الأوبرا ولا قهاوى الموسيقى ولا الأندية ، فان كل وسائل التسلية هذه يجدها المسلم فى بيته فى صحبة زوجته واولاده الذين يكرس لهم كل أوقات فراغه .

وهل يفهم من ذلك ان جميع الازواج فى مصر هم مثال للوفاء والفضيلة ؟ لا .. ولكنى اقطع بان ما يعتبر قاعدة ثابتة فى كل ما يتعلق ، بموضوع الخيانة الزوجية فى أوربا لا يعتبر عندنا الا استثناء . وربما لا أريد أيضا ان اقول اننا فى مصر نعتبر افضل من اوربا فى هذه الناحية . إنه خير للأزواج والزوجات ألف مرة ان ينأوا بأنفسهم عن الظروف السيئة حتى يخرجوا أطهارا سالمين .

كنت لا أحب لاسباب في نفسى وللذوق السليم ان اتحدث عن الدين .. ولكن سوف اتغلب على هذا الشعور لانى وجدت فى كتاب الدوق داركور أن المسألة الدينية تحتل منه الجزء الاكبر ، ولست بعيدا عن الظن بأنها هى التى ألهمته فكرة الكتاب ، ولذلك فانى استأذن لاكرس بدورى بضعة اسطر حول هذا الموضوع .

ان الدوق قدم للناس أسوأ أيام الدين الإسلامى ، وحاول فى اكثر من موضع من كتابه ان ينسب إليه خلق حالة من الجمود خنقت روح البحث وكل رغبة فى المعرفة . وان جميع العيوب التى اصابت الشرقيين اراد ان يلصقها بالإسلام . وهو يقول باختصار : ان الإسلام دين سىء لانه أوجب حالة عقم ذهنى لدى المسلمين ، وان المسلمين فى حالة ركود ذهنى لان الإسلام اوجد تلك الحالة ، وهذه حلقة مفرغة لا تنتهى .

فلنتتبع تلك الدراسة ولنبحث بطريقة أعمق قيمة هذا الرأى .. ولماذا تسبب الإسلام فى هذه النتائج السيئة ؟

إن كل العالم يعرف بان دين محمد هو التأكيد المطلق

لوحدانية الله . وكل من يؤمن بهذه الوحدانية وبرسالة النبى يكون مسلما ، ثم تأتى بعد هذا الممارسة الدينية والفروض التى يجب على المسلم ان يؤديها وهى : الصلوات الخمس كل يوم والصوم فى شهر رمضان والزكاة على المال بنسبة واحد الى اربعين لصالح الفقراء والحج الى مكة لمن استطاع إليه سبيلا . هذه هى كل ديانتنا ، انها سهلة لدرجة ان الرجل غير المتعلم يفهمها دائما ، وهى تتكون من عقيدة ثابتة من يوم ظهورها لم تتغير حتى الآن . وهي اليوم مثلما كانت بالامس وهى هى التى ستكون غدا .

والقرآن كما هو معلوم هو الكتاب المقدس الذى يحتوى على عقيدة هذا الدين الاساسية وعلى المبادىء التى اتخذت بمثابة قاعدة لتنظيمنا السياسى والمدنى . وهو ايضا كتاب مثالى فى علم الاخلاق البحتة والفلسفة الواقعية والسببية . وبجانب قواعد المعاملات نجد مبادىء حكيمة ووصايا إنسانية واجتماعية وتشريعية ممتازة . ويمكن القول بأن تلك القواعد قد شغلت معظم الكتّاب أما الجزء الذى يبحث فى علم اللاهوت فهو بسيط للغاية .

إن احاديث النبى المعبرة التى استخدم فيها ذكاءه الممتاز هى التى جعلت من هذا الجمهور الهمجى شعبا قويا ومنظما امكنه ان يتحكم فى غرائزه السيئة ويهذب من عاداته ويرتفع بمثله في الحياة مما أعطى للعرب تلك

السمعة الطيبة فى سمو الاخلاق التى يحتفظون بها حتى اليوم . وهو الذى بث فى النفوس فكرة المساواة والاخوة التى تسيطر على كل فرد مسلم . وهو ايضا الذى اعطانا اجل الدروس عن حب الصدق والكرم والطيبة والتسامح .. واليه يرجع الفضل فى ان المسلمين يحترمون انفسهم ، ويتقبلون المصائب ويزهدون فى الحياة . والقرآن هو الذى يوصى المسلمين بالعلم والعمل ليسيروا فى معركة الحياة على الأرض .

ولا يمكننى ان اقاوم رغبتى فى أن انقل لكم بعض آيات من القرآن الكريم للتدليل على صدق ما ذكرت :
"ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" .
"من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" .
"ان الله يأمركم بالعدل والاحسان" .

وفى القرآن ما معناه ان عمل الخير لا يعنى مجرد الصلاة وتقليب الوجه من الشرق للغرب ، بل ان الخير يعنى ان نؤمن بالله وبخلود الروح وبالملائكة وبالكتاب المقدس وباعطاء المال الذى نحبه لاهلنا وللايتام وللفقراء وللغرباء وان نعتق العبيد . بشر الإسلام بالحكمة والنصيحة ، وناقش وديا الذين لايؤمنون . عامل الشحاذين بالمعروف . ان الله يعطى خير الجزاء للذين يتحكمون فى شرهم ويسامحون اخوانهم . طوفوا بالعالم وتمتعوا بأحسن الاشياء التى خلقناها لكم .

وهذا الدين هو الذى ألهم النبى الأقوال القيمة التى نجدها فى احاديثه الكثيرة واننى اذكر منها قولا يشبه ما قاله المسيح : "حب لاخيك ما تحبه لنفسك" . وهذا الدين هو الذى الهم عليا الخليفة الرابع للمسلمين هذه الاقوال التى يعرفها كل مسلم ويقولها فى كل مناسبة : "ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، فاعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا" من هذا نرى ان الدين يشدد فى الواجبات التى يجب على المسلمين ان يعاملوا بها انفسهم واخوانهم ، ولا يعلق اهمية كبرى على الصلاة .

ان الدوق داركور وكذلك معظم الأوربيين الذين ألقوا نظرة عابرة على القرآن يؤكدون ان هذا الكتاب المقدس ملىء بالمفارقات . أليس من الوقاحة ان يحكموا على هذا الكتاب الجليل بدون ان يكونوا ملمين باللغة التى كتب بها ، وبدون ان يعملوا حسابا لروح شرائعه أو يدركوا قصد شرعنا والملابسات التى أنزلت فيها هذه الآيات ؟ هل يمكننا مثلا ان نفهم ونقدر قانون نابليون اذا كنا لا نراجع الملفات التى تحتوى على المناقشات والآراء التى أوصلت لقبوله ؟

ان المفارقات التى يصطدم بها الأوربيون ليست الا ظاهرية ، ولا وجود لها عند الذين يدركون اسرار كتابنا المقدس . انما نجد من المفارقات حقا فى تفسير القرآن وهذا أمر لا مفر منه ، كما كان فى الحديث الذى دار بين

عمر وبين ابن عباس الذى قال بامكان ظهور تباعد فى الآراء بين المسلمين عن طريقة فهم اوضاع من القرآن ، فدهش عمر وسأل صاحبه كيف يمكن لشعب واحد له نبى واحد ويفهم القرآن بطرق مختلفة ؟ ولكن ابن عباس قال له ياأمير المؤمنين .. ان القرآن ظهر بيننا وقرأناه ونحن نعلم لماذا وتحت اى ملابسات نزلت تلك الآيات ، ولكن الشعوب التى ستأتى من بعدنا وتقرأه لن تتعرف روح هذه المبادىء ، وعلى ذلك ستكون لهم فيها آراء مختلفة وسينقسمون وقد تقوم الحرب فيما بينهم . عند النقاد كانت رسالة محمد سياسية أكثر منها دينية ، ومن وجهة النظر الدينية البحتة ، فان النبى اراد بكل بساطة ان يصلح من شأن المسيحية وينقذ وحدانية الله التى غاصت فى الفكرة المظلمة المعقدة التى هى "الثالوث المقدس" وان يقضى على تلك الخرافات السخيفة والمظاهر الرمزية التى جاءت عن الوثنية الرومانية واليونانية . ولنعد الى المسيحية عند ظهور نبينا ، فان تلك الديانة اثارت مناقشات كان اساسها ألوهية المسيح ، تلك الفكرة التى كانت مقبولة فى وقت ما ومرفوضة فى وقت آخر من الحواريين ، وكانوا يناقشون أيضا الوهية روح القدس وطبيعة المسيح وهل هى حقيقة الهية أم إنسانية أم مختلطة ؟

إن المسيحية قد ألغت العقل والادراك الإنسانى وكان اهل الثقة من رجال الكنيسة يقولون لا تبحثوا ولكن

آمنوا . لقد ارتفعوا الى حد الاعجاب بالزهد فى المال . كانت ديانة غير مفهومة من أغلبية الناس .. تبشر بالعزوبية وتعذيب الجسد فتدل بذلك على منافاتها للطبيعة البشرية ، وكانت اداة للدسائس ومنبعا للمؤامرات ، ومزيجا مخيفا لافكار طيبة وأخرى سيئة وخليطا من الانظمة غير الواقعية ومجموعة من المبادىء المتناقضة تتصارع مع العقل ومع السلطة ومع الطبيعة . انها شىء غير معقول بالمرة ، فهى سلسلة من المفارقات كقطعة قماش مهلهلة وكل ذلك باعتراف أشد الاشخاص تدينا بالمسيحية ، وازاء كل تلك التضاربات ظهر رجل من البلاد العربية نادى بالعقل والاتزان .

ومن كان هذا الرجل ؟. يجيب الدوق داركور بأنه رجل منافق فاسد يهوى اللذة .. آه ياسيدى الدوق وهل انت حقا مقتنع بهذا الذى تقول ؟ انه يحب النساء وله زوجات كثيرات كما تقول .. وأنا اجيبك بان جميع تلك الزيجات كانت لاسباب سياسية وبذلك ضمن مساعدة أسر الاصهار .. وهل الرجل الذى يحب المتعة يتزوج من طفلة عمرها تسع سنوات أو من امرأة فى سن الخمسين أو من جارية أو من امرأة قبيحة الشكل ؟ ومحمد تزوج من النساء الأربع .. ولكن هل القناعة فى حياته التى كانت تجعله يرضى أحيانا ببضع تمرات من البلح لوجباته يمكن أن تفى مع طبيعة كثيرة المطالب ؟

وهل يمكن أن نتصور جديا ان رجلا اخذ على عاتقه اصلاح الدين والعادات وقوانين العالم اجمع والذى حقق هذا المشروع الجبار يكون لديه الوقت ليحيا حياة أى عربيد باريسى ؟ وهل من كان مثل باستور وليتريه وهوجو واديسون يمكن ان يشك فى انهم يعيشون حياة فاسدة حتى ولو كانوا يأوون مائة امرأة ؟ وهل العمل الذى انجزه محمد من وجهتيه الدينية والسياسية لا يفوق فى عظمته وفى متاعبه وفى نتائجه ، كل ما انتجه الفكر الإنسانى فى الماضى والحاضر ؟

حقيقة أن محمداً يقال : "بانه يحب النساء" كما نقل عنه الدوق داركور ، المقصود من احاديثه اذا قلنا بانه كان يحبهن لاجسادهن .. انه احبهن مثلما كان يحب الصلاة . انه كان شعوراً بالعطف الخالص ملىء بالاحترام والمعزة والحماية ، ومن هذه الناحية فاننى سأقول ان محمدا احب المرأة كثيرا .

ان المرأة كانت عند العرب الوثنيين شىء رخيص ، وكانوا يسيئون معاملتها وكانت فى اكثر الاحيان تدفن حية عند مولدها . فلما جاء محمد أطلق سراحها ، وجعل لها حياة محترمة واسترد لها حقوقها المهدرة . وكان من اوائل احاديثه قوله : "اتقوا الله فى معاملة الضعيفين المرأة واليتيم" . وهكذا يفهم المسلمون حب النبى للمرأة . ان الاسقفى فى كتابه "فؤاد الاخبار" وابو

اسحاق ابراهيم فى كتابه "فكر القوانين" والمقفع اتفقوا على تفسير الجديث وعلى استبعاد فكرة المتعة عن ذهن النبى . وتلك كانت وسيلة فى التفسير للفروق الدقيقة فى المعانى المختلفة للكلمات التى لا يستطيع الاجنبى ان يميز بينها .

والدوق داركور لا يريد ان يقف عند هذا الحد ، وليبرر الرعب الذى استشعره عن حياة النبى محمد ، ذكر قصة الـ ٧٠٠ الذين امر النبى بقطع رؤوسهم .. ولكن هذا حادث تافه فى تاريخ الحروب وقد كان محقا وقبل ذلك متحققا من الدوافع المشروعة لهذا الاجراء . واذا عدنا الى تلك الحقبة نجد فى بداية الإسلام الدساسين والمتآمرين والجرائم التى ارتكبوها ضد شخص النبى ليقضوا على هذه الديانة الجديدة ، ولابد ان نستخلص انه لولا تلك الاجراءات المشددة لمات هذا الوليد فى مهده .

وهل كانوا يريدون من النبى ان يضحى من اجل هؤلاء اليهود بحياته وافكاره ! أى ان يضحى بالعظمة والازدهار والمستقبل المشرق الذى كان يعده لوطنه وللإنسانية .. أليست هناك نخوة وطنية وإنسانية ؟ وهل من الممكن حقا ان تقوم ثورة كبرى دون ان تسكب نقطة من الدماء ؟ ألا يكلف اى اختراع بسيط حياة الملايين من الضحايا ؟ وهل فى جيوش قسطنطين لم يصبح الصليب هو شعار المعارك الدموية واصبح المسيح الوديع الها للحرب ؟

وهل نسينا حروب المسيحية فى القرون الوسطى ؟

نعم .. ان المسلمين قد اعلنوا الحرب على الكفار ولكن لم يكن هذا بقصد ان يفرضوا عليهم دينهم وانما كان بقصد عمل فتوحات مثل جميع الشعوب حينذاك . وحتى الآن تلجأ أوربا المتحضرة الى سحق بعض الشعوب التى لا تقوى على الدفاع عن نفسها تحت ستار نشر الحضارة بينهم ؟ وهنا يشهد التاريخ العادل بأن المسلمين لم يقهروا الضمير مطلقا . ولم ينصبوا حطب الحريق ولم يقوموا بتعذيب مسيحى أو يهودى ، ولكن على العكس تماما تركوا لكل الذين انتصروا عليهم حرية الدين والعادات واظهروا كرم الاخلاق باشراكهم فى حكومات بلادهم .

أرجوكم ان تحكموا بلا تحيز وافصلوا بين العمل الدينى وبين العمل السياسى ، ستجدون ان الاول قد انتشر بلا اذلال ولا ضغط ولا قسوة وفى جو من حرية الضمير المطلقة ، اما من الناحية السياسية فقد اريقت الدماء فعلا ، ولم يكن السبب فى اراقتها اقل عدلا ولا منفعة من السبب الذى حارب من اجله الاسكندر او نابليون مما جعل أوربا وقتئذ فى حالة حرب وتسلح مستمر .

وقبل ان اختم هذا الكلام النظرى عن الدين ، أود ان افسر فى بضع كلمات مذهب القدرية الإسلامى : ان

الأوربيين يتصورون بغير تعقل ان المسلمين اشخاص مسلوبو الحرية وينتظرون السماء تمطر عليهم أفراخاً مشوية ! وهذا خطأ فاحش فجملة "ان شاء الله" التى يرددها المسلمون لا تعتبر الا ترجمة لجملة "ان اراد الله" عند المسيحيين .

إن حرية الإنسان ذكرها القرآن بطريقة قطعية لا تقبل الشك ، وان فى الآيات التى ذكرتها من قبل وغيرها ما يبرهن على ذلك . عندما يقول الله : "من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" وعندما يقول : "ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" . فانه يربط فى وضوح النتائج بالاسباب والجزاء على الاعمال بالنتائج . أليس بمثل هذه الطريقة وضع "اوجست" نظريته وتوسع فيها "ليتريه" ؟ ولكن من المؤكد ان الإنسان ليست له حرية مطلقة ، فهناك عوامل كثيرة تحد من هذه الحرية مثل المناخ والتربية والبيئة وخصوصا عامل الوراثة الخفى . وهذه العوامل الاكيدة تؤدى حسب القضاء والقدر الى نتائج مؤكدة .

والقضاء والقدر الذى أراد لابن المجنون ان يولد وفيه بذرة الجنون ولا يمكن للإرادة الإنسانية ان تفعل شيئا ، كما توجد ايضا التصرف والاشياء غير المتوقعة ومجموعة الظروف الحسنة او السيئة التى تؤثر على تصرفات الإنسان . كل هذا يشكل فى نظر المسلم القضاء والقدر

أى الشىء المجهول والصدفة والحظ ، هو الإرادة الخفية التى لا يمكننا ان نعمل لها حسابا ، وهو الشىء الذى لا يمكننا ان نتقيه أو نرغبه أو نخفيه وهو الشىء الذى يجعل ميكروبا ما يقتلنى ولا يقتل جارى ، او ان يهوى حجر على رأس برىء عابر سبيل فيفتح جمجمته . ومن المفهوم كذلك ان القدر لا يستطيع ان يمنع شخصا عن العمل ولا ان يتقى شيئا بالحذر ، بل عليه ان يعمل كل مافى وسعه ثم يستسلم للقضاء والقدر .

وربما لن يكون من غير المفيد ذكر قصة الاعرابى الذى ترك جمله أمام الجامع دون ان يربطه ، وعندما دخل الجامع قال للنبى اننى تركت جملى للعناية الالهية ، فرد عليه النبى قائلا : "اذهب واربطه ثم اتركه للعناية الآلهية" . (اعقلها وتوكل) ولا يفوتنى ذكر الحديث النبوى : "خذوا الدواء لأن الذى خلق الداء خلق أيضا الدواء" .

واظن ان بهذا يمكن احتساب كل الناس من القدريين . وأقول مع هذا اننى لا أجد فيه سببا للتكاسل بل اراه دافعا إلى العمل . وذلك هو تفسيرى للقدرية التى كانت عن أشد الرجال العاملين وأخص بالذكر نابليون . واظن أخيرا ان القدرية موجودة فى جميع الاديان تقريبا بما فيها المسيحية . ألم يقل المصلح لوثر "ان أحسن الاسباب أو السبب الوحيد لنزول النعمة يكون باختيار الله

وإرادته دون كل العوامل . وان اعمال النية لا تكفى للشفاعة وبالتالى لا تفيد الإنسان ، وأن ارادته اسيرة فى نفسه وأن الله وحده هو القادر على حمايتنا" .

انه من المفيد للدين عند ظهوره ان تكون المبادىء التى ألهمت على تكوينه متماسكة لا الزمن هو الذى يرقد لتماسكها ، فنتمكن بذلك من الحكم على قيمتها ، ولذلك فقد رأينا اوائل العرب تحت حكم الإسلام يقبلون على العلوم والفنون بنهم وشغف ، ويسابقون العالم فى ممارستهم الصناعة والتجارة ويصبحون فى اقل من قرن من الزمن مسيطرين على جزء كبير من العالم .

وإنى أسائل الدوق داركور عما تسبب فى الحركة العجيبة للنشاط الذهنى والأدبى ان لم يكن الفضل فيها يرجع الى الدين الجديد ؟ ويوجد فى تاريخ العرب فترة ازدهار طويلة بلا جدال ، ظهر فيها علماء لهم أسماء ومؤلفات وصلت الينا وعالجوا فيها جميع فروع المعرفة الإنسانية بكل مهارة وهذا امر لا يمكن انكاره برغم كل مزاعم الدوق داركور .

لقد تقبل الإسلام جميع الاصلاحات والتطورات ، ولكن بعد ان اعطاها الطابع الإسلامى ولقد اشار علماؤنا الى وسائل ونظريات يجب تغييرها كلية لتلائم الزمان والمكان .. وليس هنا مجال تفنيدها ولكنها وجدت فعلا . وانى اتساءل لماذا لا يلجأ المسلمون فى هذه الايام الى

استخدام هذه النظريات كوسيلة للارتقاء . ان المسلم لديه افكار تختلف عما لدى الأوربى ، وما يروق للأول قد لا يروق للثانى الا نادرا ، وعدا ذلك فان الطيب والمفيد لهما مظاهر متعددة ، واذا كان يوجد الآن بجانب الحضارة الأوربية حضارة أخرى إسلامية محضة فهذا لن يكون فيه الا كسبا للتقدمية .

الإسلام الذى كان فى بدايته مثمرا للغاية كيف يصبح فجأةً عقيماً ؟ هل يكون قد تغير بالصدفة ؟ لا ، الدوق داركور يفترض ذلك ولا أنا أيضا .. ولكنى اؤكد بان الدين الإسلامى لا يمكن ان يتغير ، فان اساسه استمر كما كان ، وهو اليوم مثلما كان بالأمس ، والمسلم هو الذى يؤمن بأنه لا يوجد غير اله احد هو الله وان محمدا هو نبيه .

وقرآن الأمس هو قرآن اليوم ، ولا يوجد حرف واحد اضيف اليه أو حرف واحد حذف منه . لكن اذا كان الدين لم يتغير فان الاشخاص قد تغيروا بشكل فظيع .. فهل المسلمون اليوم مسلمون حقا ؟ اننى أتألم غاية الألم كلما فكرت فى ذلك . وهل يتفق الإسلام مع الخلافات والانقسام والحسد وعدم الاكتراث والكسل والجهل والخرافات التى نراها بين المصريين الذين لم ينالوا قسطا من التربية والتعليم والذين يكادون يعيشون فى عزلة عن مبادىء ديننا السليم ؟ وهل هو الإسلام الذى امر بفتح نواد ليلية ونشر الربا حتى عم الارياف جميعا ؟

وهل هو الإسلام الذى أوحى لعلمائنا أن ينظروا للحساب والجغرافيةِ والكيمياء والطبيعة وعلم الفلك على أنها اشياء خطيرة فيها نفاق ؟ وهل هو الإسلام الذى طلب من الشعب المصرى أن يلقى بنفسه وبامواله تحت اقدام رؤساء طغاة وجبابرة ؟ وهل يقبل الإسلام بتكريم الجاهل ؟ وهل يسمح الإسلام لزوج بترك زوجته واولاده لاشباع شهوة دنيئة ؟ وهل الإسلام يقبل ان تمتد العفانة بسبب القذارة والاهمال حتى الجوامع ؟ نعم .. ان الاشخاص وحدهم هم الذين تغيروا ! وتحت سيطرة رؤساء فاسدين وفى حماية سلسلة من التحكمات الاجنبية الوحشية الجبارة الواحدة أشد من الأخرى ، انحل الاشخاص تدريجيا وفقدوا يوما بعد يوم بعضا من فضائلهم وأخذوا ينغمسون فى الرذائل .

ولقد تخلوا عن العلوم والفنون تدريجيا حتى أصبح الجهل المطبق هو المسيطر على عقولهم ، ومن ثم رأينا أشد الخرافات سخفا تنتشر فى كل جانب . واصبح الدين هو ايضا شكلا ورمزا وكلمة متلعثمة بدلا من ان يكون الدليل العملى للنفوس والمنارة التى تضىء الاعمال . وذلك فيما اعتقد يفسر تماما حالة الانحطاط التى انغمس فيها المسلمون . واننى الاحظ ان المسلمين كانوا على مستوى عال عندما كانوا يطبقون سياسيا النظام الإسلامى وكذلك كانوا عندما كان سلوكهم فى الحياة مطابقا للاخلاق وللتعاليم الإسلامية ، وعندما تخلوا عن

تلك المبادىء كان هذا ايذانا بأفول نجمهم . واذا كنت اريد ان ابين اسباب انحدار العالم الإسلامى ، فانى اضع بين العوامل المهمة بل على رأسها عدم تنفيذ التعاليم الدينية .

ومهما يكن من أمر فمن الملاحظ ان الدين الإسلامى لم يتخل أبدا عن تكوينه ومبادئه الأولى مثل المسيحية ، ومنذ القرون الوسطى وكذلك الى اليوم انحرف الفكر المسيحى عن منبعه . فان براءة البابا من الخطأ وعزوبية القساوسة والاعتراف وبيع صكوك الغفران عن الخطايا الماضية وحتى عن الخطايا المستقبلة والترانيم فى الكنائس والانوار والصور والملابس الكرنفالية متعددة الالوان ، كل هذه الاعمال دخيلة على الدين المسيحى بواسطة رجال الكنيسة . ولم يكن هناك الا الاصلاحات التى نادى بها "لوثر وكالفن" التى انقذت الفكر المسيحى من ضغط كبار رجال الدين الذين لم يتورعوا عن السخرية من قصة المسيح ، والذين بمسلكهم المبتذل ألقوا بالدين فى الوحل .

ان المسلمون يعتقدون ان الدين الإسلامى هو من دين المسيح او هما دين واحد ، وان رسالة محمد ما كانت إلا لاصلاح الفساد الذى طرأ . ولهذا السبب وطالما ان المسيحية لم تتطهر تماما ، فسيظل المسلمون بلا ادنى شعور امام كل حسناتها .

وفى الواقع ان كل المراقبين لاحظوا ان المسلمين لم يتأثروا مطلقا بالدين المسيحى ، وهذا مما يزعج الدوق داركور ولكى يهدىء من روعه فانه اخذ فى مهاجمة المسلمين بزعم انهم اعداء للحقيقة وانهم من الفساد لدرجة تجعله لا يتأثرون .

فلنترك جانبا هذه الخواطر اذا شئتم ودعونى اقول الآتى : اليوم وقد تمت التجربة والدلائل الصحيحة قد اثبتت بان الإسلام فى تقدم مستمر سواء بين الشعوب الهمجية او بين الشعوب المتمدينة ، كل ذلك بلا جيوش او مال او مبشرين ، فى الوقت الذى زيف فيه الدين المسيحى بواسطة رجال الدين ، وتقوقع فى داخل نفسه باسم العلم والسياسة ، يبحث بدون جدوى عن طريق ينفذ منه الى المناطق المتأخرة .

القول الفصل الذى أود ان اقوله للدوق هو ان العقلية البسيطة قد تدرك دائما المعنى الأول بينما العقلية القوية لايمكن أن تهضم المعنى الآخر .

المعنى الخلقى يتفاوت عند الإنسان حسب التربية والدين والعادات . ولا يمكن ان أتصور ـ كما تعلمت ـ بوجود اخلاق واحدة عالمية . والملاحظة حتى السطحية للناس تبين ان كل عمل يتصل بالاخلاق والضمير نجد له صفات من كل لون على جميع المقاسات . فالذى يتغذى بلحم البشر والذى يقتات بالنباتات والانجليز واليهود والبوذيون كل هؤلاء يفهمون ويمارسون التعاليم الاخلاقية بطرق مختلفة . حتى فى المجتمع الواحد نجد إلمام الافراد بالاخلاق يتباين .. فالملكية التى تعتبر سرقة عند بعض الناس (الرافاشول) هى حق مقدس عند الرأسمالى .

والمسلمون ينظرون الى المثل الاخلاقية بنظرة تختلف نوعا عن نظرة المسيحيين لها ، كما انهم يواجهون الحياة ويمارسونها بصورة مختلفة أيضا . وفضلا عن ذلك فإن المسلم لا يركز مطلقا كل آماله على هذه الحياة ، فانه غالبا ما تكون له أوهام يحلم بها راضيا ويفضلها على الحقيقة مهما كانت مغرية ، وبوجه عام فانه يظهر عدم اهتمام بكل ما يجذب الأوربيين ويغريهم . فالمائدة الشهية والمناظر الممتعة ومباهج الحياة التى تشغل جانبا

كبيرا من حياة الغربيين ليس لها الا تأثير بسيط على نفسه . وعلى ذلك فان المسلم عموما لا يهتم بالسعادة التى يجرى وراءها الناس فى هذا العالم ، بل هو يشك حتى فى امكان وجودها فى هذه الدنيا . وهو يقصر نفسه على احلامه التى تقوم عليها المتعة الوحيدة الحقة والتى يرى انها الجديرة بشغل ذهنه زاهدا فى المال وفى ترف وفى المقدرات والمباهج التى ينظر لها على انها اشياء عابرة كاذبة وعلى انها افعالا تبعده عن الطريق المستقيم ، ولذلك نجده وقد بدا لنا وقورا وصامتا وحزينا .

وهو يخشى القيام بالوظائف العامة لانه سيحاسب عن كل عمل ويخشى أن يستجوب بشدة عن الطريقة التى أدى بها هذا العمل . وهو يتحاشى الاختلاط بالناس لانه يجد خطورة فيما يقدمونه من وسائل الترفيه ، وهو لا يرغب فى الربح الكثير لانه يجب ان يتأكد أولا من انه عن طريق حلال . ولذلك فهو يكره أصلا هذا المعدن الرخيص (النقود) وأيضا فهو ينفقه دون أسف ، وكثير من المسلمين اضاعوا ثروتهم فى مساعدة الآخرين ، فهل هناك دليل أقوى من هذا على الزهد فى المال ؟ وان عددا كبيرا من المسلمين اليوم يقبلون الأرباح ولو أنى لا أعرف احدا منهم يتعامل بها بقصد المنفعة ، وكذلك هل تتصورون .ان المتعة الجنسية فى نظره ليست الا متعة رخيصة لرغبة وقتية .؟ ان جميع الصعاب التى يصادفها

المرهفون فى الحب وتسمو بهم الى درجة عالية من الفن وتنال تقديرا عظيما فى الغرب ليس لها صدى فى نفوس المسلمين الأبرياء ! وبما اننى قد تجونت كثيرا فى هذه النقطة الوعرة فاننى أضيف أيضا بأن المسلم مهما كان فاسقا فهو لا يستسلم كلية للفجور بل يحتفظ دائما برزانة تمنعه من ان ينحدر الى احط الدرجات .

"ان فى قلب كل رجل شيطاناً يرقد" .. كلمة قالها شاعر معروف وهو على حق خصوصا فى أوربا حيث توجد مفاسد يشمئز المسلم من فعلها ، ومن بعض الحيل التى لا يمكن ان يستسيغها ولذلك فان المسلم غالبا ما يكون طاهرا واذا ما وقع مرة فى الفسق فانه لا يتردى الى حد مخالفة القوانين الطبيعية .

اذن لماذا يدعى الدوق داركور بأن الإسلام يشجع بلا قيد على المتعة المضطرمة للشهوة الى حد النهم ، وهو يتحدث دائما عن الشهوة والفسق والفساد ولكنه لا يقول أين رأى كل هذا . ان الشرقى الذى يزور اوربا مرة يعود بلاشك مبهورا بالجمال المتنوع الذى اوجدته الحضارة المعربدة فى جميع اركان البلاد ، ولكن هذا الاعجاب يمتزج دائما بشعور الاشمئزاز الذى تبعثه حالة الانحلال الخلقى والضلال الذى ينتشر فى كل مكان . وهل يحس الأوربى بنفس هذا الشعور عندما يزور بلدا إسلاميا ؟ وهل لا يتضجر غالبا من نقص المتعة عندنا ؟

ان احصائية فرنسية تؤكد انه يوجد من بين النساء محترفات الفجور رسميا واحد واربعون فى المائة من القاصرات ، وان اكثر من ربع المواليد اطفال غير شرعيين ، وان المجتمع يفقد سنويا حوالى مائة وخمسين ألفاً يموتون فى لحظة الولادة او فى اثناء الحمل ، والاحصائية لا تذكر الا حالات الاجهاض وما يستتبعها من حالات قتل الاطفال المعروفة . انها يجب ان تقدر بحوالى نصف مليون ضحية وكما قال الكاتب الكبير "يوليوس سيمون" «ان الطفل الطبيعى ينجو من الموت باعجوبة ». الا يبين هذا الرقم الكبير حالة الفساد المتزايدة ؟

انكم تتهموننا باننا مازلنا نمارس الرق حتى يومنا هذا ، ولكن ألا ترون انكم تستعبدون السود بمنتهى الفظاعة ؟ ان هذه المعاملة القاسية قد كتبت عنها جرائدكم وسجلت عليكم من معظم الكتّاب فى جميع انحاء العالم بحيث يكون من الفضول تكرار الكلام فى هذا الموضوع .

وبالاجمال فان جماعة الشهوانيين فى أوربا لم تنقرض بعد ، بل على العكس يوجد رجال كثيرون ليس لهم غرض فى الحياة الا ان يتمتعوا بكل شىء وبجميع السبل ، والبعض منهم يفخر بانه شهد وعمل اكثر من اللازم لدرجة ان احساسه تبلد ولم يعد يخجل او يتأثر بشىء وهؤلاء هم الذين فقدوا الاحساس السليم ، فضلا عن الذين

اصيبوا بنوع من الهستيريا والانحطاط والفساد . وكذلك يوجد نساء كثيرات لا يرغبن فى ان يكن آلات لتفريخ الاطفال ويفضلن فقط ان يلمعن فى العالم !

اننا نعلم انكم اخترعتم ادوات حربية يمكنها ان تفنى ملايين البشر فى ثوان معدودات ، وآلات تقرب المسافات وأخرى حسابية تعطى للفرد أو تأخذ منه ملايين الفرنكات فى اقل من أربع وعشرين ساعة ، ولقد اوجدتم مبادىء سليمة لتحكموا بها الافراد ، وتعلمون فى المدارس النظريات البديعة فى علم الاخلاق .. ولكن هل استطعتم اخراج رجال اصلح ؟ اننى اشك فى ذلك ، أليس صحيحا ان التعاليم الاخلاقية لم تكن بالنسبة للكثيرين الزاما بأن يكونوا افرادا صالحين وانما هو الخوف من رجال البوليس ومن مواد قانون العقوبات ؟

نعم ، ان فى أوربا لشراً وشراً مستطيراً .. وهذا ليس بمستغرب ، فان الحضارة تمكنت حتى الآن من بث النور وتمكنت ايضا من ابعاد الفضيلة . انها اهملت توعية القلوب وهدمت العقائد القديمة واوهام القدر والاحلام الجميلة التى لم تكن فقط تبهج الحياة بل كانت ايضا تهذب الهوى وتكبح الشهوات . وهى التى زعمت ان السماء خاوية وان الأرض هى الجنة الوحيدة الممكنة ، وان الإنسان ينحدر من القرد وان الحكمة معناها ارضاء الرغبات وبجانب ذلك كلمات أخرى رنانة عن الاخوة

والاحسان والواجب والتضحية ، كلمات ظهرت لتضفى على الحديث طلاوة ولكى تخدع سذاجة البسطاء !

ان المسلم يرتبك اذا القى حديثا عن الاخلاق لمدة ساعة ، وعنده ان التضحية لآخرين ليست من العلوم التى تلقن بل هى شىء يسرى فى الدم ، وجميع السواح قد لمسوا تلك الصفات الصادقة التى تدعو الى احترام المجتمعات الإسلامية . ان الشرف والكرم وسماحة الشعب العربى والتركى اصبحت مضربا للأمثال . والنساء عندنا لا يعرفن الطعن فى اعز الصديقات ، والرجال لا يرسلون خطابات مجهولة ليهدموا بها كيان اسرة . إن الناس فى هذه المجتمعات متحابون حقا ، والملاحظ ان المعاملة الحسنة هى التى تسود بين الافراد كشعور طبيعى صادر عن القلب ، وليس اساس الترابط بشخص ما هو منفعة حالية او مستقبلة او للتسلية والترفيه ، ولكنها المحبة القلبية هى التى تجعل هذه الصداقة متبادلة .

اننى اعلم للأسف بأن هذه الاحاسيس الجميلة فى طريقها الى الزوال .. لانه فى كل مكان يدخله الأوربيون يتقلص هذا الشعور الجميل ، ولست أنا أول من يقول بهذا ، فقد قرأت اخيرا كتابين عن تركيا الأول تحت عنوان "مساوىء الشرق" والثانى "تركيا الرسمية" ولا يمكننا ان نتهم هذين الكتابين بمحاباة الاتراك ، ولقد

وجدت فيهما ان المسيحيين هم قطعا الذين افسدوا المسلمين وهذا ايضاً هو حكم بعض اصدقائى من الأوربيين . إن النشالين والمزورين واللصوص والمرابين وقطاع الطرق واصحاب الكباريهات والاشخاص عديمى الذمة من بين الشرقيين والأوربيين هم الذين نشروا الرزيلة بين المسلمين ، ولكى يدافع هؤلاء عن اموالهم وحياتهم ضد المعتدين تعلموا هم ايضا الكذب والسرقة ، والغش .

وينقل الدوق داركور حديثا دار بينه وبين احد القضاة يبين فيه ان الفلاحين يكذبون ويستعينون بشهود الزور أمام المحاكم ليدافعوا عن انفسهم ، الى حد ما هذا صحيح ، ولكن الذنب فى هذا يرجع الى المرابين والمزورين من الاجانب الذين تحايلوا بجميع وسائل الغش والخديعة لينتزعوا من الفلاحين اراضيهم .

والذي يؤكد صحة نظريتي اننى وجدت نفس الرأى عند احد الرجال الممتازين وكان يشغل لبضع سنوات مركز قاض فى المحاكم المختلطة ، وهو مؤلف الكتاب الممتع الذى صدر فى جزءين تحت عنوان "مصر وأوربا" وسوف اعرض رأيه الذى كتبه عن صدق المصريين واقارنه برأى القاضى الآخر الذى سبق الاشارة اليه ، يقول فى صفحة ٥٥ من الجزء الأول : من المحال ان نتعرف على المصريين المسلمين المتحضرين بدون ان نشعر بتأثير حسن من ناحيتهم ، اما عن صدقهم فلا

يمكن الا ان نعترف بانهم صرحاء وخصوصا فى علاقتهم مع الاوربيين ، وهم فى طبيعتهم الكتمان والرزانة ولهم كل الحق فى تفضيل السكوت عن الكلام الجزافى ، ولكنهم ليسوا منافقين ولا كاذبين سواء فى الخدمة او خارج العمل ، ولهم من طباعهم ودينهم ما يبعدهم عن مغبة الكذب .

"وبوجه عام ، فان التمسك بالصدق منتشر بين الطبقات الممتازة اكثر منه بين الطبقات التى تنقصها الحضارة . وهو كذلك ايضا فى مصر ولا يمكننا ان نقول بان الفلاحين والمصريين الفقراء من سكان المدن هم اكثر كذبا أو أقل صدقا عن مثيلهم من الفلاحين أو الافراد غير المتمدينين فى أوربا . وفى الحقيقة يجب ان نستثنى هؤلاء الذين افسدهم العمل مع الأوربيين والاجانب ، اعنى الاشخاص الذين لا وفاء لهم والذين يتظاهرون بالعظمة دون أى احترام والذين تتميز اعمالهم بالقسوة والاحتقار لغيرهم ، وهؤلاء لا يعترفون مطلقا بالحقيقة ، بل فى سبيل قضاء مصالحهم يكذبون بلا خوف . ان الفلاحين الذين ذاقوا العذاب من بعض الانتهازيين الاجانب الذين استغلوهم تحت الحماية القنصلية لا يصدقون فى علاقاتهم مع الأوربيين واليونانيين أو "الاجانب الشرقيين" أو عندما يتقدمون الى المحاكم المختلطة التى لا يشعرون نحوها بأية ثقة . ولكن فيما عدا هذه الحالات يجب ان نقول بأن الفلاحين

بوجه عام صادقون فى جميع اقوالهم وفى اعترافاتهم امام القضاء . ومع ذلك فان تجربة المحاكم المختلطة بدلا من أن تشهد ضدهم قد شادت بفضائلهم" .

ألم يسمع الدوق داركور ان اكثر الاموال التى اغتصبها المسيحيون من المصريين كانت بطرق اجرامية ؟ وإذا كان قد سمع فلماذا لا يقول ؟ وإذا كان لم يسمع فهذا يدهشنى اكثر لانه صادر من شخص زار مصر ثلاث مرات !

والآن .. هل فهمتم لماذا لا يتردد المصرى عن نهب أو اتلاف زراعة احد الأوربيين ؟ انه بكل بساطة ينتقم لنفسه وهو بجهله يعتقد بأن جميع المسيحيين سواء ولا محل لاحترامهم ولذلك فان القرى المصرية التى لم يدخلها المسيحيون نجد فيها جميع الصفات الحميدة التى ذكرتها من قبل .

يدعى الدوق بان المسلم يظن انه بقيامه ببعض الاعمال التقليدية أو الشكليات المحفوظة يكون بذلك قد أخلص لله ويكون قد ارضى ضميره ، ولكنى اسأل سيادة الدوق من اين تعلم هذا ؛ الا توجد عندنا فكرة عن الاخلاق ؟ وهل يكفى ان نقوم بالصلاة والصوم والزكاة أو الصدقة ونقوم بتأدية فريضة الحج فيغفر لنا الله كل شىء وليس علينا بعد هذا أى حساب ؟ وهو لكى يثبت قوله هذا يستعين بالكلمة التى قالها الغزالى : "كل من

اعترفوا بوحدانية الله وبعد ان يكفروا عن اخطائهم فى الحياة سوف يخرجون من الجحيم وبرحمة من الله لن يبقى فى جهنم فرد واحد مادام قد آمن بوحدانيه الله .. وكل الذين آمنوا سينتهى تعذيبهم بشرط ان يكون فى قلوبهم ولو ذرة من ايمان" .

ولكن من منا لا يرى أن الدوق لا يفهم أو هو لا يريد أن يفهم كلمات المؤلفين الذين يستعين بأقوالهم ؟ من أين جاء بفكرة أن المسلم الذى قام ببعض الواجبات يكون قد أعفى من ناحية الضمير ؟ ان كل من يقرأ كلمات الغزالى لا يفهم منها الا شيئا واحدا وهو ان المسلم سيعاقب على اعماله السيئة لمدة معينة فى جهنم وبعد ذلك يخرج منها ، ويفهم منها أيضا ان العقوبات السماوية او الآلهية ليست ابدية وأن بعد العقاب يوجد الغفران . ان المسلمين يعتقدون ان الله لا يغفر الا مخالفات ما أمر به ، اما الاعمال التى تضر الناس فان الله لا يغفرها إذ يرجع هذا الى المجنى عليه فاذا لم يغفر الاساءة فان المتهم يظل فى الجحيم .

وفى تقدير المسئولية يقسم المسلمون الواجبات الى طائفتين : فروض نحو الله وواجبات نحو الإنسان وهذه الاخيرة هى المطلوبة اكثر من الأولى . أليس فى الآيات التى ذكرتها فى الجزء الذى تكلمت فيه عن الدين والتى اعود فأكررها "أن عمل الخير لا يعنى ان يتلفت الإنسان ذات اليمين وذات الشمال ويقوم بالصلاة ، ولكن الخير

فى الايمان بوحدة الله وبخلود الروح والملائكة والكتاب المقدس وباعطاء المال الذى يحبه لاهله ولليتامى وللغرباء وللشحاذين ويعتق الإنسان من الرق" ؟ ألا يبرهن هذا بصورة قاطعة على أن الله يضع عبادته فى المرتبة الثانية وأنه يعطى كل الأهمية للاعمال الصالحة أى لواجبات الضمير ؟

ان الدوق لكى يبين سوء العادات الإسلامية يفترض بأن رجلا عجوزا يمكنه ان يتزوج علانيةً من طفلة سنها مابين ١٠ و١٢ سنة دون حرج من الناس . وإذا كان يريد بذلك ان يقول ان مثل هذا الزواج يحصل احيانا فى مصر ، فانى لا اعترض ، ولكنى اضيف فقط ان مثل هذه الحالة تحدث فى كل مكان من العالم ، وهو عندما يؤكد ان مثل هذا العمل ليس فيه عيب ، ولا يجرح شعور احد ، فليسمح لى ان اقول له انه لم يعرف عنا شيئا ، برغم انه امضى فى مصر ثلاث سنوات فى فصول الشتاء ولم يتمكن من التعرف جيدا على مثل تلك المسائل الحساسة التى قد يجهلها أحيانا ابن البلد نفسه ، انى اؤكد له ان مثل هذه الزيجات لا ينظر لها بعين الرضا ، وأنا اعرف شخصيا رجلين فى سن متقدمة يقاسيان العزوبية المريرة لانهما يريدان الزواج من فتيات فى سن مبكرة وينتظران منذ اربع سنوات بدون جدوى ! ولكنى لا ألومهم مطلقا برغم ان العزوبية فى مصر تعتبر من الحالات التى لا تحتمل .

ولكى نحكم على اخلاق شعب ما يجب ان ندرس شعب ما يجب ان ندرس سلوك الافراد الذين يتكون منهم ذلك الشعب . وانى اكرر ان فى الشرق بوجه عام ، يبدو ان الناس اقل ميلا للشر وهم لا يريدون الاذى للناس بل يهرعون لنجدتهم . والمجرمون فى اعمالهم السيئة لا يلجأون لهذا الخبث وهذا العناد وهذه الطرق الملتوية والبراعة التى يتميز بها امثالهم من المجرمين فى الغرب وبالاخص اذا كنا نريد ان نفكر فى بعض الجرائم التى ترتكب فى حق اناس نعتز بهم .

والرأى العام لا يبدى اهتماما بالفضول السىء ، وهذا التلهف الذى يصل الى حد الاعجاب فيجعل من الصالات التى تنعقد فيها المحاكم فى أوربا وكأنها "حفلة عرض اولى" وتنتهى باشاحة الوجه عن هذه المخلوقات التعسة . ويجب ان نعترف أيضا ان الجريدة والرواية والمسرح كانت من بين العوامل الاساسية فى افساد العادات الأوربية ، وبجانب وسائل النشر المفيدة والعروض الطيبة توجد مئات منها فاسدة . ان تلك الحرية المطلقة فى القول وفى العمل يتولد عنها بعض نتائج لا تحتمل ، فهى تضلل النفس وتهيىء الخيال وتدعو الفرد الى فكرة القيام بعمل ما . ولن اتكلم عن الاستعراضات الفاسقة والرسومات والمؤلفات الفاحشة التى لها نصيب كبير فى الانحلال الخلقى الذى يعانى منه الشباب والتى تمهد لهم طريق الحياة بفتح افاق تجذبهم وتأسرهم كل الاسر .

وبالاجمال فان الدين الإسلامى يحوى اطهر الاخلاق التى عرفها الإنسان حتى يومنا هذا والقرآن يعتبر كتاب آداب خلقياً من الطراز الاول ، وعبثا أن نبحث فيه عن شواهد مثل تلك التى نجدها فى التوراة بطريقة يندى لها جبين كل رب اسرة .

إن حياة محمد مليئة بالمثل الطيبة ، وسبق ان شرحت ما يجب ان يفهم عن عطفه على النساء ، وحسنا يفعل الأوربيون باستبعادهم سخافة المزاعم المفرطة عن نظام الحريم الذى لا يعلمون عنه شيئا.. وربما تمكن بعض المستهترين من اقتحام منزل امرأة ما تعيش حياة اوربية لأنها تتيح لها فرصة ارضاء نزواتها وهى لا تقدر تلك الحياة الا بمقدار ما تمنح من متعة هذا اذا اردنا ان نسمى الفجور متعة . ولكنا نتجنى كثيرا على نسائنا اذا ظننا بأنهن يعشن مثل هؤلاء المغامرات الفاسدات ، هذا النوع الذى نجده احيانا فى أوربا وبين احسن العائلات .

إن الآداب الإسلامية تخلق اناسا اطهارا لهم قدرة على اجتياز أقسى التجارب بلا ضعف ، وتجعل من نسائنا زوجات صالحات يضعن كل شرفهن فى انجاب ذرية صالحة وفى تدبير معيشتهن . ومن ناحية أخرى ، إذا كان الاحسان فى الدين المسيحى شيئا جميلا فانه لا يرتفع الى حد "التكافل الإسلامى" الذى يدعو الى الاخوة بين الناس ويفرض عليهم عمل الخير ويأمرهم

بتجنب الشر ، ويذهب الى أبعد من ذلك ـ كما ذكرت ـ فيطالبهم باشراك الفقير فى مال الغنى .

ولا يمكننى ان اختتم هذا الفصل بافضل من ذكر قولين من مصدرين مختلفين لنأخذ فكرة عن الخلق الإسلامى : الأول ـ يقول المفتى العظيم ابو إبراهيم بن موسى : "ان المسلم المسئول يجب ان يفعل كل ما أمر به ويمتنع عن كل محظور وعليه ان يساعد اخوانه فى حياتهم باليد واللسان والقلب . باليد هذا واضح إذ يعنى تقديم كل المساعدات المادية الممكنة ، وباللسان وهذا يعنى بالنصيحة والتوجيه وبتعليمه كل ما يحتاج اليه ليكون خالص النية وليقوم بالاعمال الحسنة وليتعامل بقول المعروف وليثنى على المحسنين وليدعو بالمغفرة لخطايا المذنبين ، وبالقلب وهذا يعنى بحبه للخير والاشادة بفضائل الآخرين وبغير هذا لا يكون مسلما ، والا ينفث الكراهية وان يخشى ويعمل حسابا لآخرته" . وهو الذى يقول : "ان المسلم لا يكتفى بالمعاملة الطيبة للبشر بل يجب ان يشفق على الحيوان ويعامله برفق ويعمل بالحديث التالى : "ان امرأة دخلت جهنم ليس فقط لانها لم تعط لقطتها طعاما بل لانها منعت عنها السبيل الى ذلك" . "ان الرحمة واجبة على كل مسلم ، فاذا ذبحتم الحيوان فاحسنوا ذبحه" . والثانى ـ هو العالم القاضى الفاضل الذى سبق ذكره فى حديثه عن الاخلاق فى صفحة ٧٨٢ من كتابه "مصر واوربا" يقول : "ان

الإسلام دين يستهدف الخلق الطيب ولا يقل فى حرصه عن العقيدة البارسية (١) والمسيحية . ان روح الاخلاق فى القرآن لا تختلف فى جوهرها عما جاء فى الانجيل ، ان القرآن يحث على التقشف والقناعة ويمقت اغتصاب أموال الناس ويكره الغرور ويوصى بالزهد . وينكر البخل والاسراف على حد سواء ، ويحث على التواضع والصبر وعلى العفو عن الاساءة ، كما يطلب رد الاساءة بالحسنة ، ويخص بالحرص على الامانة ويأمر بالشهادة بالحق فى مواقف القضاء دون نظر الى اية منفعة أو صلة . وينهى بشدة عن النميمة والغيبة وبذاءة اللسان ، كما يحث بنوع خاص على البر بالوالدين واليتامى ويدعو ايضا الى الاحسان وعمل الخير والكرم ويضع نظاما دقيقا لصرف الزكاة لمستحقيها ولمن يجب ان تعطى ومقدارها وكيفية ودوافع هذا المنح .

"والقرآن يشدد على مخافة الله وعلى ارضاء الناس والإسلام يضع فضيلة الرحمة فى المرتبة الأولى وهو لا يعلق أهمية اقل عن الانجيل فى الاخلاص المطلق لله وهو المعنى الحقيقى لحب الله فى المادة الاولى من الوصايا الانجيلية .

إن القرآن لم يورد مبادئه الاخلاقية فى قواعد مرتبة ولكنه تضمن اخلاقيات ممتازة واسعة الآفاق عميقة الغور ، وانه من الخطأ الفاحش ان يشبه الناس هذه المبادىء الخلقية "بالفريسية"(٢) أو بالتعاليم التى تقوم

على فكرة السعادة المجردة او بالتعاليم التى تعنى بالشكل دون الجوهر ، وهى فى هذا لا تختلف عن الانجيل .

---

(١) "الباريسية" عقيدة انشاها فارسى اسمه "زورا ستر" وهى لون من المجوسية وملوك المجوس هم هؤلاء الذين جاءوا لتهنئة العذراء مريم بمولد السيد المسيح .

(٢) "الفريسية" معناها الطبع الخبيث المنافق . والفريسيون هم اعضاء مذهب يهودى كانوا يتظاهرون بالتقوى والصلاح فى الظاهر فقط . ولقد قال عنهم المسيح انهم مثل القبور المدهونة فحقدوا عليه وتآمروا مع الامراء والقساوسة على صلبه حبا .

خصص الدوق داركور فصلا من كتابه للحركة التعليمية فى مصر ، وفى الحقيقة هو اراد ان يقدم طعنا دسما ضد الإسلام ، وادعى بان نقص الفنون والعلوم فى المجتمعات الإسلامية انما يرجع لتأثير الإسلام السىء ، وتمادى لدرجة انه حاول تجريد هذا الدين من العمل المتحضر الذى قدمه للعالم ، فينتزع بذلك ميراثه العظيم ومكانته البراقة واعظم صفاته من العزة والعرفان بالإنسانية . ولكن ليطمئن المسلمون فانه لا يوجد فى كل ما قاله أى شىء جدى .

عندما قام الدوق بمثل هذا البحث الخطير لم يكلف نفسه عناء البحث فى كتابنا المقدس أو فى اقوال واعمال نبينا ولم يقدم أى دليل او سند كيفما كان . ولم يحاول ـ مثل كل الناس ـ أن يتحرى الدراسة قبل أن يحكم ، وهو يعترف بأنه لم يقرأ اى مخطوط عربى فضلا عن أنه ينقصه تخصص عالم مستشرق مثل "ساديو" الذى اعترف الدوق بعجزه عن منازلته فى هذا الميدان ، ومع ذلك لم يتورع عن مهاجمة آراء هذا العالم القدير الذى يجله الشرق اجمع لاستقامة خلقه ولحكمه النزيه ، والذى

يكفى ان يدلى ببعض الحجج ليهدم بها كل تقولات الناس . يقول له قائل .. إن العرب انتصروا فى هذه المعركة أو تلك ويقدم له اسماء القواد ويروى له تفاصيل المعركة ويرسم له الاماكن التى تشهد بذلك ولكنه يصر على عدم الاقتناع وعلى أن الاشياء التى قدمت له غير صحيحة ، ولقد حرصت على نقل هذه الكلمات لانها تبين حالة الدوق النفسية التى لا تنقصها الغرابة ، ولأنها حالة الشخص الذى لا يريد ان يفكر الا فيما يرضيه ، وهذا دليل التعصب والصلف والمكابرة فى المعلومات التى يقطع بصحتها التاريخ .

ولذلك فانى لا أرى داعيا لمناقشته فى هذه النقط التاريخية ، وإذا كان كل ما كتب فى هذه الناحية على يد أشهر المؤرخين فى الشرق أو فى الغرب لم يقنعه فقطعا لست انا الذى يستطيع القيام باقناعه . ولكن يكفينى ان اقول فى كلمة عابرة ان الخلق العربى اضفى مدنية براقة على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى بينما كانت أوربا تغوص فى اعماق الظلمات . وإذا كان بعض المؤلفين من أمثال "رينان" قد حاولوا أن يثبتوا ان العرب لم يقوموا بدور ايجابى فى تكوين تلك الحضارة المشرقة ، فاظن أنه لا يوجد من يخالفنى فى أنها كانت من أعمال المسلمين . وإذا نظرنا الى تأثير الدين الإسلامى الذى كان قويا حينذاك لا نجد انه كان يقف عائقا فى سبيل ظهور تلك الحضارة وهذا هو ما يجب ان نذكره باهتمام .

ان الإسلام بلا شك لم يمنع ـ تحت أى ظرف من الظروف ـ من تطور العقلية والمعرفة الإنسانية أو من ازدهار العلوم والفنون والاكتشافات القيمة التى انارت السبيل للقرون الماضية . ان المناظرات العظيمة فى تلك العصور التى كانت تستهوى العقول والتى كانت تبحث فى الاصطفاء وفى التحكيم المطلق وفى تداخل الإرادة الآلهية فى الاعمال الإنسانية وحتى فى المبادىء المقدسة للقرآن ، وكانت هذه المجادلات تدور جهارا فى الجوامع وفى حضور علماء الإسلام من العرب ، والعلماء الاجانب والمسيحيين الذين ينتمون لمختلف المدارس كانوا يشاركون فى مناقشة الآراء فى حرية مطلقة ، وبذلك وبفضل تلك المناظرات الحرة الكبيرة ارتفع هذا البناء الشامخ الذى اقامه الفكر الإنسانى الا وهو الشريعة الاسلامية التى كانت مجهولة من العلماء الأوربيين والتى كأن يظن بعضهم ان اصولها منقولة عن الشريعة الرومانية وهى فى الواقع مستمدة كلها من القرآن الكريم واحاديث النبى .

إن عددا من كبار الرجال فى ذلك العصر ممن اشتهروا بمؤلفاتهم العلمية شهدوا بأن العلم قد وصل لقمة المجد أيضا . وانى لأذكر بعض من لمعت اسماؤهم فى علم الفقه وعلى رأس القائمة الأئمة الأربعة : مالك وابو حنيفة والشافعى وابن حنبل فضلا عن ابى اسحاق المروازى وابى اسحاق الشيرازى وابى اسحاق العراقى وابى

اسحاق ظاهر الدين وابن الجوزى والسهروردى وابو العباس ابن سيريدجى وابوحامد المرورسى وابن قيروان والقاضى حسين وجعفر الصادق ثم ابن محمد الباقر الخ ...

وفى الرياضة والهندسة : عمر الخيام والمأمون ومحمود بن موسى وأحمد بن موسى وكمال الدين وأبوالوفا الفرجانى وابن سيناء ثم ناصر الدين الطوسى .. الخ .

وفى الفلسفة : الفارابى وابوالبركات البغدادى وابن رشد وفخر الدين الرازى والغزالى ثم ابن ظهر الخ ..

وفى الطب : خالد بن يزيد الأموى وابوبكر بن جهر الأندلسى وابن التالميد الطيب ثم ابن رضوان الخ ..

وفى التاريخ : ابن الاثير وابن خلدون وابوالفدا والمقريزى والعواقيدى وابن زولت وحمد الروايس وخليفة ابن خياط وابوبشر والدولابى وابن القوطية ثم ابوبكر الزوبيدى .

ومن الشعراء : ابن خفاجى وابن زيدون وابن مطروح وابو تمام وأبونواس والبحترى والكرزمى والفرزدق والمتنبى ثم ابوالعلاء المعرى الخ ..

وهؤلاء من بين آلاف آخرين لم يمنعهم الإسلام من ان يضحوا بحياتهم فى سبيل العلم وفى سبيل البحث عن

الحقيقة ، اننا نجلهم لانهم باعمالهم العظيمة اضفوا بريقا من المجد على العالم الإسلامى الذى سيظل دائما يعترف لهم بالفضل .

وانى لسائل نفسى ، إذا كان الدين الإسلامى لم يقف عقبة فى سبيل ازدهار العلوم والفنون طوال عدة قرون فلماذا يكون اليوم كذلك ؟ وهل هو يتضمن فى جوهره مبادىء شاذة فى التعليم ؟ أم هل يوجد فى تكوين هذا الدين تعاليم أو وسائل تجافى التعليم ؟ ولنفتح القرآن الذى هو دعامة هذا الدين امام المسلمين ، هل نجد فى كل هذا الكتاب كلمة واحدة لا اقول انها لا تحض على التعليم بل تظهره بشكل غير محبب ؟ كل من اطلع ولو مرة واحدة على القرآن لابد ان يتأثر بهذه الميزة الظاهرة ألا وهى الاتجاه دائما الى عقل الإنسان ، فهو يقول لهم دائما : انظروا الى هذا العمل وادرسوا هذه المعجزة وتفكروا فى هذا المبدأ . اما الآيات التى تنص وتوصى بالعلم فهى كثيرة وانى اكتفى منها بهذين القولين : "ان الله يكرم العلماء" و"ان الله يرتب مخلوقاته حسب ايمانهم وعلمهم" . ونجد فيه ايضا آيات عن بعض العلوم كعلم الفلك وتقول : "وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر" ويقول أيضا : "وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين" .

ان جميع الاحداث التاريخية التى وردت فى القرآن هى بمثابة عظات أو دروس للمؤمنين ، والوصايا التى يعطيها لهم فى جميع صفحاته ، ليتمعنوا عجائب الخلق فى السموات والأرض فى الاشياء والحيوان والإنسان ، وليدرسوا ويدركوا اسرار الولادة وانسجام اعضاء الإنسان ووظائفها وأسرار الموت ، وهذه قطعا اعظم الوثائق التى تفوق علوم الطب والتاريخ والفلك وجميع فروع العلوم التى وضعت للاستعانة بها تبيان مدى منفعتها .

إن احاديث النبى لا تتعلق جميعها بالدين ـ كما يظن البعض عادة ـ ولكنها ليست اقل حسما . وماذا نقول فى رد النبى على اعرابى كان يسأله فى ذات يوم عن معنى الدين فقال : الدين هو العقل" وقال مرة أخرى : "العلم هو المثل الاعلى للمسلم ويجب البحث عنه حتى من أفواه الكافرين" . وهذه الحكمة الجميلة : "اثنان لا مثيل لهما غنى ينفق ماله فى عمل الخير وعالم ينفق حياته فى نشر العلم" وايضا هذه الكلمات التى تعتبر ثناء على العلماء : "العلماء خلفاء الانبياء" وانقل اليكم أيضا قوله : "ابحثوا عن العلم ولو فى الصين" ، "وفاة قبيلة يحزن أقل من وفاة عالم" ، "ان حبر العالم يساوى دم الجندى" ، "العالم له ثواب اكثر سبعين مرة من المؤمن" ، "معرفة كلمة من العلوم ثوابها اكثر من مائة صلاة" ، "ان كلمة حكيمة تكونوا تعلمتوها وعلمتوها

لاخوانكم المسلمين تساوى صلاة عام" ، "الله والملائكة وسكان الأرض والسماوات يباركون الذى يعلم الخير للناس" . لن انتهى إذا حاولت الاسترسال وكما ترون فان القرآن والاحاديث كانت تحث على التعليم ويجب ان نعترف بان هذه دعوة مستجابة لاننا لم نسمع مرة فى تاريخ ديننا الإسلامى ان بينه وبين العلم أى عداء . ومع انه قاسى من النظريات المادية المتطرفة فإنه لم يضطهد اى عالم وسمح لجميع العقائد بالتعايش الى جانبه . وإذا كنت أقارن هذا التسامح بالظلم الذي ساد أوربا وبالجرائم التى ارتكبت ضد العلماء والكتّاب والفلاسفة تحت اسم المسيحية فاظن ان هذه المقارنة لن تكون الا فى صالح الإسلام .

لقد ذكر علماؤنا فى مؤلفاتهم بان حب العلم فريضة على كل مسلم ، ويروى "فخر الرازى" ان احد العلماء وجد ذات يوم يهوديا يعلم الفلك لأحد المسلمين فسأل اليهودى عما يقوم به فأجابه : انى افسر له آية من كتاب الله ، فسأله وما هى ؟ فأجاب اليهودى انها الآية التى تقول : "أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج" . واضاف اليهودى : كنت افسر له كيف ان الله رفع السماء وجملها .. فاستحسن العالم ما استمع له واقره .

إن الله يقول : "أو لم تنظروا فى ملكوت السموات

والأرض وما خلق الله من شيء" ولقد قرر علماؤنا وبحق ان هذا القول يشمل جميع العلوم بلا استثناء حتى العلوم التى يطلق عليها العلوم المستترة مثل الشعوذة والسحر التى يجب ان نتعرف عليها دون أن نعتقد فيها .

ولقد ذكرت سابقا ان كلمات النبى لم تكن كلها فى صميم الدين ، ويجب أن نستبعد مقدما الاحاديث البسيطة وتعاليم الاخلاق والامثال أو حكم الفلاسفة التى تحتوى بكل تأكيد على نصائح طيبة ، ولكنها لا تتصل برباط قدسية مثل الآيات التى سبق ذكرها ، كما يجب ان نستبعد أيضا كل ما ليست له صلة بالشرائع ، ويتبقى بعد ذلك الاحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل النظم الواردة فى القرآن والتى لم تعتبر كجزء من الدين الا بعد تمحيص دقيق وبعد أن ثبتت مطابقتها لآداب أو روح القرآن الكريم .

وبما أن اقوال النبى ليست كالقرآن ولم تكتب الا بعد وفاته ، فقد نتج عن ذلك بعض احاديث نقلها كل فرد حسب إلهامه وذوقه أو دوافعه ، وترتب على ذلك أن اصبحت حصيلة تلك الاحاديث فى معظمها مجموعة من الاباطيل تتنافى مع العقل . ولما كنت أقول بأن أغلبية تلك الاحاديث لا تمت مطلقا الى الدين فشرعيتها ونصوصها تكون بالتالى مجهولة ، ولكن تولدت عنها طقوس غريبة شاذة وخرافات حمقاء قللت من اعتبار الدين الإسلامى . وفى احد الايام كان أحد اصدقائى يلوم عالمًا مزعوما

لتكاسله وسأله لماذا لا يقوم بالقاء دروس علنية ؟ فلم يجد هذا العالم ما يبرر به تهاونه إلا قوله : أنني اعمل بحديث للنبى يوصى فيه الجهلاء بالسعى وراء العلم ، وليس على العلم ان يسعى وراء الجهلاء ! الى مثل هذه الحد انحدر بعض مشايخنا الذين يصفون احوال السماء والجنة والنار بتفاصيل دقيقة لدرجة تشعر الإنسان بانهم يعرفون عن هذا كل شىء وهم فى الواقع يجهلون كل شىء على الأرض .

وهذا ليس بغريب طالما انهم لا ينظرون للعلم الآلهى على انه يكمل جميع العلوم ، إن هؤلاء الرجال الذين ليست لديهم ولو معلومات أولية مثل تلاميذ المدارس الابتدائية ولا يهتمون بمواصلة وتوسيع معلوماتهم . ولذلك فانى اعتبر مثل هؤلاء المشايخ كتبا ناطقة وأنهم فقدوا من زمن بعيد القدرة على التعقل ، وهم قوم جهلاء لهم صفاقة الادعاء بفهم وتفسير الفلسفة الدينية ! ويلقبون انفسهم بحراس أعمال النبى ! ويدعون بأنهم يسهرون على الدين وعلى طهارته وعلى تطبيقه .

وصدقنى أيها الدوق بان هؤلاء المشعوذين هم الذين قضوا على العقول ووقفوا فى طريق الاجتهاد ونشروا التعاليم الكاذبة وابتدعوا الألاعيب لكى يتهربوا من واجباتهم الدينية . والبعض منهم فسر القرآن بطريقة غير معقولة ، ولذلك فليس من العدل ولا من الحق القول بأن

اعمالهم تنتسب أو تكون جزءا من الدين . ولنفرض أن أحد الجهلاء فكر فى تفسير "قانون نابوليون" وبعد سنوات من الجهد والبحث تمكن من اصدار عشرات المجلدات ، بكل تأكيد يكون قد كتب عن كل المواضيع ماعدا القانون ، فهل يقال بعد ذلك أن "قانون نابوليون" يعتبر عملا سيئا ؟ قطعا لا .. انما التفسير هو السىء .. ونفس الشىء بالنسبة للذين فسروا القرآن فقد ضللوا بعض ذوى العقول الضعيفة - دون ان يمسوا جوهر الدين - بزعم ان ليس لإنسان الحق فى الكلام عنه فى حين ان كل الناس لهم هذا الحق .

وهل لا يوجد نفس العيب فى أوربا ؟ ألا يوجد فى كل مكان مشعوذون ، يتسترون تحت اسم الدين ليملأوا جيوبهم على حساب ذوى العقول البريئة الذين يتبعونهم ؟ وهل أنا بحاجة الى تذكيركم بأن الشعب الفرنسى قد أصبح ألعوبة بين أيدى بعض القساوسة الذين يحدثونه عن معجزات "لورد" والعذراء مريم وبذلك يقومون بصفقات ضخمة ، يستغلون فيها سذاجة الضعفاء بألف حيلة ؟ أما عندنا فمن حسن الحظ ان هؤلاء المشايخ ليس لديهم المقدرة مثل اخوانهم فى أوربا ، إذ ليس لديهم جمعية لها نظام ودرجات كنسية أو مجمع مقدس ولا يمكنهم ان يحرموا المؤمنين حتى الصلاة تقام بدون وساطة هؤلاء المشايخ الذين لا يتدخلون فى اى مناسبة فى حياتنا لأن كل شىء من أول

الزواج حتى الممات يتم بعيدا عنهم ، وبذلك لا يوجد عندنا مسألة دينية تمنعنا من السير فى الحياة ولا يوجد ما يدعو لصراخنا بأن "رجال الكهنوت هم أعداؤنا" لانه لا يوجد عندنا شىء من ذلك . اما عن الوسوسة أو الخرافات الدينية التى هى ليست من الدين فى شىء .. فإنها ناتجة عن الجهل وستتلاشى تدريجيا مع نشر التعليم وتقدمه . وهو يتزايد بطريقة مدهشة تجعل لنا ثقة كبيرة فى المستقبل .

واننى لأقرر بان الاصلاح يفرض نفسه ، ويجب ان نعطى الذين يتفرغون للدراسة اللاهوتية تعليما عقليا لكى يتمكنوا بالعلم من انتزاع العقائد السيئة من افكار بعض المسلمين ، تلك العقائد التى تهدد بانهيار الدين ، وليبينوا للناس طريق العودة الى البساطة المحببة فى قواعد الإسلام الخمسة . وهؤلاء وحدهم يمكن نشر الإسلام فى جميع بقاع العالم وهم وحدهم الذين يمكنهم انقاذ الدين من نكبة محققة .

أنا إنسان ابعد ما يكون عن التعصب ولكنى اعتقد بان الإسلام سيكون اعظم علم يمكنه ان يجمع فى يوم ما الإنسانية جمعاء تحت عقيدة واحدة وببساطته وبخلو قواعده من التصوف وباخلاقياته الفعالة وبسهولته المشهودة وبما عرف عنه من تسامح كبير ، يستطيع ان يكون المرشح على ما اعتقد ليقوم بالدور الاول فى إيجاد

دين عالمى وذلك هو الأمل الذى يصبو إليه القرآن الذى سيتحقق فى وقت ما . وهو حقيقة دين طبيعى فى شكله البسيط الذى يرضى الغالبية العظمى من البشر التى برغم كل شىء لا تستطيع ان تحيا بدون تخيلات جميلة فى رأسها .

على اى دليل اذن يستند الدوق داركور عندما يقرر فى كتابه مسألة عدم اقتران ديننا بالعلم ؟ ولقد رأينا ان القرآن والنبى يحثون الناس على البحث والدرس ، وأن هذا الدين بالذات اخرج للناس منذ ظهوره اعظم العلماء الذين احتلوا مكانة مرموقة فى العالم وكانوا يعتبرون حجة فى علم اللاهوت (وهذه على ما اعتقد ميزة أختص بها الإسلام) وبصرف النظر عن هذه الحقائق فانى اعود وأتساءل أين هى أدلة الدوق داركور على ما يقول ؟ هل هى القصة الخرافية عن حريق مكتبة الإسكندرية بأمر من عمر ؟ ان المؤرخين الأوربيين الذين يعول عليهم قد هدموا تلك الخرافة منذ زمن بعيد .. ومن الذى يجهل اليوم أن تلك المكتبة المشهورة قد احرقها يوليوس قيصر .. واعيد بناؤها ثم هدمت مرة ثانية بايدى نفر من المتعصبين فى ذلك العصر ولم يكتفوا باحراق المكتبة بل ارتكبوا الآف التخريب فى آثار مصر القديمة . وهذه التهمة التى حاولوا نسبتها الى أمير مسلم هى من افعال مسيحى او يهودى عدو للإسلام ، اراد بنشرها ان يقلل

من شأنه ، انه اتهام باطل يدحضه كل تاريخ عمر الذى يبرئه منها كل البراءة .

اظن اننى قد بينت فى وضوح ان الدين الإسلامى ليس له أى شأن فى الحالة المتأخرة التى توجد عليها مصر أو العالم الإسلامى بوجه عام . وهذه الحالة تفسر الاسباب المؤكدة التى اثرت على الشرق كله بدون تمييز دينى ، واظن ان الحضارة القديمة كانت لها مثل هذا الطابع المؤقت ؛ وبما انها كانت لا تستند على وسائل علمية فقد كانت تولد بانتصار وتموت بهزيمة . وكذلك الحرب فقد كانت تعتبر من العاب القوى الجسمانية ، الفوز فيها كان للأقوى ولما كان الاكثر وحشية هو الحائز لتلك الصفات فقد كان الحظ يبتسم له دائما ، ولكن عندما تنتهى المعركة بالفوز كانوا يستسلمون بسهولة للمدنية وينعمون بنشوة الانتصار ثم يستيقظون ذات صباح على حافة الانحدار !

أما طريق الخلاص فقد كان بأن يأخذ شعب همجى آخر مكانهم بكل سهولة .. وهكذا كانت تلد الشعوب ثم تنمو وتموت مثل جميع المخلوقات الحية التى تتكون منها .. وتلك ايضا هى قصة الحضارة الشرقية لم يحفظها شىء ضد القوى الوحشية . كان المسلمون يمارسون العلوم والفنون فى صورة بدائية ، أما الافكار الفلسفية غير المعقولة وادلة وجود الذات الآلهية فقد

استهوت معظم العقول . والكيميائيات والاحكام الفلكية التى ظهرت على شكل علوم والتجارة والصناعة التى كانت لا تزال فى المهد كل هذه لم تكن قد وجدت طريقها بعد ، أما السياسة فقد كانت ابعد ما تكون عن العلوم السياسية التى تدرس الآن .

بمثل تلك الاحوال لا يمكن لحضارة ما ان يكتب لها الاستمرار إذ كان ينقصها الاساس المتين وبكل اسف فالشرق هو الذى بدأ بتلك الحضارة وقت ان كانت اوربا تحتل المرتبة الاخيرة فيها ، ولكنها هى التى استفادت من تجارب الشرق الطويلة المؤلمة ، وبعد ان تحسست الطريق لقرون عديدة انتهت باكتشافها الطريق السليم وتمكنت من جعل العلم اساسا لتكوينها ، وهذا ما أعطى للحضارة الأوربية طابع الاستمرار بل اقول طابعا غير قابل للنكوص .

وعلى ما أظن فان الحضارة الحديثة سوف تدوم فى أوربا . وبكل تأكيد إذا كانت الشعوب يمكن ان تنقرض فحضارتهم هى الباقية ، واظن ايضا بأن حياة الشعوب المؤسسة بتلك الطريقة تجعلها فى مأمن من الحوادث اكثر من ذى قبل وان كان هذا يبدو مستبعدا امام أوربا المشحونة بالسلاح فى كل مكان . ولكن فى الحقيقة سيكون الفضل للعلم الذى يجب الاعتماد عليه فى المحافظة على السلام .

ونريد ان نهنىء اوربا بخطها هذا الذى لعبت فيه الصدفة دورا كبيرا ، ولكنا نرجوها الا تنظر الينا بازدراء ولتتذكر قليلا بان الشرق كان أول صانع لحضارتها وانه هو الذى كونها ونماها واورثها هذه الثروة الثمينة التى تتمتع بها اليوم ، وان جميع الافكار الفلسفية والعلمية والدينية لم يتفق جمعها الا من الشرق .

---

(١) حرمان المؤمنين معناه : منعهم من التقدم للمذبح واخذ المناولة ، وهى عبارة عن جسد المسيح فى صورة قربان يمثل الجسد ونبيذ يمثل الدم .

يلاحظ الدوق داركور فى كتابه وفى الباب الذى يتكلم فيه عن هذا الموضوع نقص علوم الآداب فى مصر ، وانى اوافقه على هذا الرأى ، فيما عدا عشرون جريدة أو مجلة تصدر فيها بعض مواضيع أدبية ، والانتاج الأدبى لم يلمع فعلا لعدم وجود امكانيات اكثر من ذلك .

وأبرز ما فى علم الأدب القصة والمسرح وهما يكاد لا يكون لهما وجود تقريبا ، وانى اقول تقريبا لانه من وقت لاخر تصدر ترجمة لقصة فرنسية أو مسرحية مؤلفة بعيدة عن كل قواعد الفن . وتلك المسرحيات السيئة تقوم بتقديمها فرقتان عربيتان تضمان بعض ممثلين قادرين ، وبرغم ذلك فان المشاهد التى تقدم كانت تثير حماسة المشاهدين الكثيرين الذين كانوا يرحبون بكل ما يقدم لهم .

ولكن هذا بكل صراحة لا يسمى "أدب" ، إذ ان هذا يتطلب وجود اساتذة بنشاطهم وبذكائهم او على الاقل باجتهادهم ان يردوا الى الأدب مكانته السابقة التى كانت له فى المجتمعات الإسلامية مع ادخال بعض التعديلات التى تناسب الظروف الحاضرة لكى تطابق العادات الحديثة .

ولما كان الغذاء الروحى ضرورياً فقد لجأ المصريون الى الأدب القديم الذى يوجد فيه آثار طيبة وخصوصا فى الأدب الاجنبى ، ويمكننى ان اخص الأدب الفرنسى بالذات لأن اللغة الفرنسية هى اكثر اللغات انتشارا ولذلك فان المؤلفين الفرنسيين لهم بيننا قراء كثيرون ، واننى اعرف عددا كبيرا من المصريين لهم إلمام بالحركة الأدبية الفرنسية اكثر من كثير من الفرنسيين انفسهم .

اما عن العلوم فان الدوق يعترف بانها تحتل فى حياتنا مكانا كبيرا واصبحت لها قيمة منذ نصف قرن . وقد لاحظ ان الطلبة الذين يلتحقون بمدرسة الفنون والصنائع قد اكتسبوا مهارة فى الاشغال اليدوية تضارع مهارة العمال الأوربيين ، ولقد رأى بنفسه بعض انتاج تلك المصانع وقد يكون موضع فخر لأى مصنع فرنسى . وقال كذلك عن المدرسة الحربية : "ان التعليم المقتبس عن المناهج الفرنسية كان على مستوى عال وان المدرسين الذين تعرف عليهم كانوا يتحدثون الفرنسية بطلاقة . وظهروا بمظهر الرجال الاذكياء الذين لا تنقصهم الثقافة" . كما قال ايضا : "ان المدرسة التوفيقية التى كانت تحت إدارة شاب فرنسى نشط ، يقبل على عمله بجد وعزيمة وبذلك أحرز نجاحا ملحوظا ، وهذا حكمنا على تلك المدرسة من مشاهداتنا" . وانى اضيف الى ذلك أنه كان يمكنه ملاحظة نفس النجاح إذا كان قد قام بزيارة للمدرسة الخديوية أو مدرسة الطب أو مدرسة الحقوق فى القاهرة

التى بفضل جهود السيد "تستو" العلمية والتعاون الوثيق بينه وبين الاساتذة اصبحت اليوم فى حالة مرضية للغاية ، ومما يساعدنى ان لى اصدقاء من بين هؤلاء الاساتذة استمع منهم دائما الى ثناء لا ينقطع على ذكاء الطلبة ومزاياهم الخلقية .

ان الدوق داركور كان يمكن ان يغير رأيه فى الدين الإسلامى لو قام بزيارة لمدرسة دار العلوم التى أسسها علِى باشا مبارك منذ حوالى عشرين سنة خصيصا لتعليم الذين يتخرجون فى الأزهر ، وهؤلاء المشايخ الشبان بدأوا يأخذون نصيبهم من التعليم اللاهوتى والأدبى فى تلك الجامعة العلمية ، وهم يجدون فيها تربية ثقافية مثل تلك التى توجد فى أحسن جامعات أوربا . وكل ما يسمى بالعلوم البحتة مثل الرياضة والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلم الفلك إلخ .. يقوم بتدريسه صفوة من الاساتذة ذوى المكانة ، والتاريخ والجغرافيا واللغات الاجنبية ايضا لم يهمل شأنها .

وانه من العجيب حقا ان تجد هؤلاء المشايخ الافاضل ـ ذى الجبب والعمم ـ لهم معرفة صحيحة بكل اسرار الكيمياء العميقة ويمكنهم ان يتغلبوا على جميع المسائل الصعبة فى علم الجبر ، والبعض منهم يرى ان هذا القسط من التعليم ليس بكافٍ فيسافر الى اوربا لاتمام دراسته ، ان هذا النجاحَ الذي احرزته تلك المدرسة يعتبر احتجاجاً صريحاً موجهاً لاعداء الدين

الإسلامى الذين يدعون بان المسلم لا يقدر العلوم الدنيوية .

وامام هذا النجاح اذا ضاعفت الحكومة عدد التلاميذ فى تلك المدرسة بحيث تقبل جميع الطلبات التى تقدم للالتحاق بها ، وإذا كانت تنتفع ايضا من تلك التجربة الناجحة فتقوم باعداد منهج كامل لدراسة مستوفاة مختارة للجامعة الأزهرية ألا يضاعف هذا من نسبة النجاح(١) .

ماذا نستخلص من كل هذا ؟ ان مصر منذ خمسين عاما مقبلة على الثقافة ، ولقد انتهى الامر الى ظهور عدد كبير من الرجال الذين بدراساتهم التى قاموا بها فى المعاهد أو التى استكملوها بأنفسهم فيما بعد اصبحوا لا تنقصهم القيمة الثقافية ولا المعرفة الصحيحة . وانى أؤكد انهم اصبحوا يتساوون فى المقدرة مع زملائهم الأوربيين ، الذين يوجد من بينهم بعض المتفوقين . ولكن هذا لا يعنى شيئا .. لاننى اظن ان من بين الاخصائيين المصريين يوجد أيضا من يفوق اقرانه من الأوربيين . لا اريد ان احدد اسماء ولكنى أؤكد ان من بين اطبائنا ومهندسينا ومن أهل الفقه يوجد عدد كبير يتمتع بمقدرة علمية عظيمة وهم موضع تقدير من الأوزبيين الذين لا يجدون فى ذلك اية غضاضة وانى مقتنع بصدق تقديرهم .

وكيف إذاً يؤكد الدوق داركور فى كتابه بان جميع الأوربيين الذين يعيشون فى مصر يتفقون على القول بأن جميع المصريين ليست لهم كفاءة ؟ ومن هم هؤلاء الأوربيون ؟ وهل هم يعرفون مصر حقيقة ؟ يستطيع إنسان ما ان يقيم فى بلد ما ، عشرين سنة ومع ذلك يظل يجهل كل شيء عنها . وأنا اعرف كثيرا من الفرنسيين حضروا الى مصر وبعد ان اقاموا بها عشر سنوات لم يتمكنوا من معرفة كلمة عربية واحدة ولم تكن لهم علاقة مطلقا بأى مصرى . كما اعرف ايضا كثيرا من اخوانى المواطنين مكثوا فى فرنسا مدة تتراوح مابين خمس سنوات وست سنوات دون ان يتعرفوا على حقيقة فرنسا . فهل يمكن بمثل تلك السهولة ان يحكم على حقيقة حال شعب ما ؟ ولماذا لا يكون الدوق داركور قد تعامل مع اشخاص مغرضين ليست لهم دراية بظروف بلادنا واصدروا حكمهم علينا بمنتهى البساطة ؟ ولماذا لا يكون هو ايضا ضحية لمثل هذا التضليل ؟

وبوجه عام فالمصريون ليست لهم سوى علاقات بسيطة بالأوربيين وقد لاحظت هذا من الاسئلة التى توجه الىّ من وقت لآخر من بعض الأوربيين الذين يجهلون الكثير من عاداتنا وليست لهم معرفة برجالنا . لا شيء مما يمس مشاعرنا يهتمون به ، وهم يحضرون الينا ومعهم عنا افكار غريبة مستمدة من اقوال كتّاب غير جادين وهم يحفظون تلك الافكار ولا يحاولون تمحيصها ثم ينقلونها

بدورهم للسواح الذين يطلبون منهم بعض المعلومات عنا .

ولكن .. فيما عدا هذه الفئة التى تتكون منها اكثرية جماعة المستعمرين الاجانب ، فانى اقول عن ثقة ، بان الأوربيين الذين يتكلمون لغتنا والذين تربطهم علاقات بمواطنينا ، أو الذين أتيحت لهم الفرصة ليشاهدوا رجالنا اثناء العمل ، لهم فينا اراء تختلف كل الاختلاف . ويوجد من بينهم عدد كبير أخر قد كتب عن مصر والمسلمين صفحات مليئة بالحقائق والمستندات ، وأنى اعرف الكثير من الاجانب قد حكموا حكما قاسيا على كتاب الدوق داركور . انى اعلم ان الاجنبى الذى لا يعرف لغة بلد ما سيضطر لكى يكتب مشاهداته الى الاستشهاد بالسكان ، ولكن هذا وضع غير سليم ، لانه يجب ان يكتب ما يعرفه شخصيا وفى حالة عدم وصوله الى المعرفة فلا يوجد من يضطره الى الكتابة . واظن ان هذا هو واجب الضمير الإنسانى . اننا نرى يوميا المشاهد التى تحت أعيننا يصورها الإنسان بدافع الشر فى نفسه بصورة مشوهة غير طبيعية بلا أى داع لذلك ، ونرى اشخاصا يتلذذون بالكذب ، وآخرين لا يمكنهم التحدث بدون مبالغة ، والبعض الآخر يتمتع بخيال واسع وجميع هؤلاء يحلو لهم ان يجسموا الحوادث التافهة ويضيفوا عليها اشياء بحيث تصبح شيئا آخر عما كانت عليه .

وهل تريدون من سائح يكون قد قام برحلة قصيرة ومكث بضعة أشهر فى بلد ما ، أن يلم الماما كافيا بجميع النواحى ويحكم على الاشياء والاشخاص ويتنبىء بمستقبل ذلك البلد ؟! ان هذا ليس من التأريخ فى شىء ولكن بمثل هذا الاسلوب بنى الدوق داركور آراءه عن عدم كفاية المصريين مستندا الى مزاعم بعض الاشخاص الذين تعرف عليهم بطريق الصدفة فى حفلة عشاء أو فى نزهة ما .

وكيف إذاً .. ظهر هؤلاء الاطباء المحترمون وهؤلاء المهندسون المشهورون الذين نفذوا وينفذون حتى الآن مشروعات كبيرة ، وهؤلاء القضاة المستقلون الذين ردوا للعدالة صولتها ، وباختصار كيف وجد كل هذا الشباب الذى يفيض بالحماسة والعاطفة والأمل ، والذين نقابلهم فى كل مكان وبين كافة الطبقات فى المجتمع كل هؤلاء عديمو الكفاية لانه يحلو لبعض الذين تعرف عليهم الدوق ان يصفوهم بذلك ؟ ان هؤلاء الاشخاص الذين نقلوا اليه تلك المعلومات ابعد الناس عن الاتفاق فيما بينهم على تفسير لاسباب الانحطاط بين المصريين .. فالبعض يدعى بان لديهم قوة الذاكرة ولكن ينقصهم الذكاء ، والبعض يؤكد بأن ليس لديهم المقدرة على هضم ما يتلقفوه ، وهناك من يقول بأن طبيعة المصريين الهمجية ترتد اليهم دائما ، وبعضهم يقول بأن هذا النقص غريزى له اسباب مبهمة إلخ .. حقيقة امر يدعو الى الدهشة هذا

الميل الذى يبدو عند بعض الأوربيين للاقلال من شأننا بكل الوسائل واننى مندهش لانهم لم يضيفوا الى كل ماقالوا بأننا نحيا بلا روح !

إن العيب الاساسى فى كل تلك الملاحظات أنها ترتكز غالبا على واقعة معينة . وإذا فرضنا كما تخيلوا بأن المصرى ليست لديه قوة الابتكار فيجب ان نعترف بأن الأوربى كذلك إلى حد ما ، وهو يميل بطبيعته الى خلق قوانين ووضع قواعد تكون فى اغلب الاحيان مستندة الى رمال متحركة . لنفترض ان احد الأوربيين قام بعمل ما مع مهندس مصرى غير متمكن تماما من عمله ـ وهذه حالة نراها فى كل مكان فى أوربا كما نراها فى مصر ـ ولكن هذا الأوربى سيخلص من تلك الحالة الفردية الى أن جميع المهندسين المصريين غير الكفء ، ولم يفكر لحظة فى أن بجانب هذا الغير كفء يمكن ان يجد مهندسين ممتازين . سوف يقول الأوربى بلهجة قاطعة لا .. ان المهندسين المصريين غير اكفاء لقد خبرتهم بنفسى اثناء العمل .

كذلك فى كل مكان ، هل كل الذين يتعلمون علماً ما أو فنا ما يكتسبون فيه كفاءة حقيقية ؟ وكذلك فى أوربا ألا يوجد محامون لا يجدون قضايا واطباء لا يجدون مريضا ومهندسون بين بين ؟ وفى جميع انحاء العالم الا تشكل صفوة الناس اقلهم عددا ؟ لكنهم سيتساءلون إذا كان لديكم علماء حقا فلماذا لم يقوموا بأى اختراع حتى

الآن ؟ الجواب بسيط : انه من المستحيل على شعب بدأ تعليمه منذ خمسين عاما فقط ان ينتج مخترعين .. ان هذا تماما كمن يطلب من طفل عمره ثلاث سنوات ان يتسلق الهرم الأكبر ! ان الاختراع عادة يتماشى مع حالة التعليم وبالاخص مع التجارب التى خطت خطوات تقدمية ، ويتولد ايضا عن مجموعة من الابحاث هى خلاصة افكار اجيال متعددة ، وهو اكليل من الغار لاعمال قام بها عديد من العلماء . انه مثل الثروة الكبيرة التى تحتاج فى تكوينها الى اكثر من ميراث .

---

(١) ولن استمع الى من يقول لى بأن علماءنا يرفضون دراسة العلوم الدنيوية ، وكثير من قدامى أهل العلم من المسلمين ، ممن وصلتنا مؤلفاتهم وكانوا من المتعمقين فى العلوم الإنسانية المعروفة فى وقتهم كلهم تلقوا دراساتهم فى هذا الأزهر نفسه ، كذلك فان دروس الرياضة والتاريخ التى ادخلت على المنهج الجديد ، تجد منهم اليوم اقبالا شديدا .

تعقيب

بقلم : أحمد عباس صالح

ربما كان كتاب « تحرير المرأة » ثم كتاب « المرأة الجديدة » أكثر الكتب التى ظهرت فى المائة وخمسين سنة الماضية حظا . لقد استقبل الكتابان إبان صدورهما ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ بعاصفة من الاحتجاج والاتهامات البالغة الفظاظة ، ومع ذلك لم تكد تمضى سنوات حتى قامت حركة نسائية قوية فى مصر وكان كتاب « تحرير المرأة » هو البيان الثورى الذى أعلنته ، وكانت أولى الاشارات لذلك هى رفع الحجاب الذى قامت به هدى شعراوى وصاحباتها متحديات كل « الكبار » الذين هاجموا قاسم أمين .

وليس هناك كتاب تعرض للهجوم مثل كتاب « تحرير المرأة » منذ ظهور « تخليص الابريز » لرفاعة الطهطاوى حتى « فى الشعر الجاهلى » لطه حسين .

ومع أن أكثر الهجوم على الكتاب كان يدور حول « التغريب » وتقليد الأجانب بل وبمؤامرة صليبية منهم ،

فإن عملية رفع الحجاب حدثت فى مواجهة الاحتلال البريطانى ، وكنوع من خروج المرأة المصرية للمشاركة فى إجلاء الجنود وهكذا جاء رفع الحجاب رمزا للحرية التى ينشدها الشعب المصرى .

وتأكيدا للفكرة الجوهرية التى أثارها قاسم أمين وهى أن حرية المجتمع من شأنها أن تنعكس على حرية المرأة وكرامتها . وأن الحكم الاستبدادى الذى يسود مجتمعا ماينعكس على المرأة ويخلق كل الهوان الذى تقاسى منه .

والواقع أن الكتاب ـ كُتب فى لحظة من لحظات الابتهاج بالحرية حيث كانت الطبقة الوسطى المصرية تشعر لأول مرة بالحرية . وكانت هناك مسيرة متعثرة منذ أول مشاركة دستورية حقيقية سنة ١٨٦٦ أيام إسماعيل إلى قيام الثورة العرابية لانتزاع حق المصريين فى المشاركة فى السلطة وفى تحريرهم من الاستبداد الخديو .

ولاشك فى أن هناك نوعا من سوء الحظ التاريخى أصاب حركة الطبقة الوسطى المصرية أيام الثورة العرابية فقد كانت المنطقة كلها محل تنازع الأتراك والامبراطويات الجديدة ، وكانت مصر بصفة خاصة

البديل القوى للدولة العثمانية منذ قيام محمد على ، وكان من الضرورى وفقا للمصالح العليا للدول الكبرى ضرب محمد على وأخيرا السيطرة على مصر وخاصة بعد حفر قناة السويس باعتبارها الطريق إلى الهند ، جوهرة التاج البريطانى .

كانت الطبقة الوسطى المصرية قد تكونت منذ حكم محمد على واتسع دورها ، وفى سبعينات القرن التاسع عشر أصبح لها وجود بارز وأثر ملموس فى كل أشكال الحياة . كانت الملكية الزراعية قد تغيرت الى حد كبير لصالح الملاك المصريين وكانت وظائف كثيرة قد جرى تمصيرها . وكانت الثقافة المدنية ـ بحكم حركة التصنيع وبناء الجيوش ـ قد شملت قطاعات كثيرة من السكان على حساب الثقافة الدينية الخالصة ، وجرت الأقلام بالحديث عن طبيعة العلاقة بين الحاكم والشعب . وعن نظرية جديدة للمعرفة تقوم على العقل والمختبر ، وكان حكم محمد على الاستبدادى قد نشط الرغبة فى الحرية ، ولم يستطع خلفاؤه أن يدركوا المتغيرات التى طرأت على المجتمع وأوغلوا فى ممارسة الاستبداد حتى كان الانفجار العنيف الذى بدا فى الثورة العرابية وكان عماده الأساسى هو الحرية .

وهناك الكثير الذى يمكن أن يقال فى تفاصيل الثورة العرابية وسبب فشلها ، إلا أن المشاعر الناتجة عن

التطورات التى لحقت بالمجتمع المصرى لايمكن إلغاؤها بمجرد الهزيمة العسكرية .

والثورات هى حصيلة تراكم خبرات وثقافات ومطامح معينة ، ولهذا حتى عندما تفشل تحتاج إلى وقت طويل كى تتبخر فيه وتختفى المشاعر والأفكار التى أفرزت الثورة ، وكان من الصعب على جيش الاحتلال البريطانى أن يستأصل تلك الآثار من نفوس النخب الكبرى التى كانت عماد الثورة العرابية وركيزتها .

وكان الفكر السائد هو فكر الحرية والخصومة الأصلية محتدمة بين السلطة الاستبدادية التى كانت ممثلة فى الخديو ونظامه ، وبين قيادات الطبقة الوسطى الجديدة من المتعلمين والمثقفين الذين قادوا عمليات التغيير الكبرى فى الصناعة وفى الزراعة وفى التخصصات العلميه المختلفة .

وعندما تولى كرومر مسئولية الحكم الفعلى فى مصر عمد الى تمصير الوظائف التركية والشركسية ، واتجه إلى الطبقة الوسطى المصرية ، واستعان بها فى عمليات إصلاح كثيرة ، واستطاع أن يقيم صداقة مع الشيخ محمد عبده وتلاميذه الذين كانوا يشكلون القيادات الفكرية للثورة العرابية ، والذين كانوا على عداء سافر للسلطة الخديوية .

وهذه النقطة الحساسة فى حاجة إلى مراجعة علمية دقيقة بعيدة عن العواطف . ذلك أن عداء ورثة الثورة العرابية للخديو كان شديدا وكان الشيخ محمد عبده يقدح فى الحكم التركى منذ محمد على حتى آخر سلالته ، مرورا بتوفيق وعباس حلمى . وكانت هناك كراهية شديدة للنظام الاستبدادى السابق ، حيث كان الخديو مطلق السلطة ، يأمر بالتصفية الجسدية أو مُصادرة الأموال أو النفى دون رادع تقريبا ، وكان الحكم يستند إلى صفوة من الأتراك والأجانب يقومون سدا بين السلطة والجماهير .

وفى ظل هذا الحكم شهد المثقفون المصريون ألوانا من الاضطهاد ، ليس أشدها قسوة النفى أو مصادرة الأموال ، وهناك اثنان يضرب بهما المثل من قيادات المثقفين المصريين على أشكال الاضطهاد التى يمكن أن يتعرض لها الانسان فى ظل حكومات الاستبداد الشرقى هما رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .

ومن الناحية الأخرى كانت عملية تصفية الامبراطورية العثمانية التى تقوم بها بريطانيا وفرنسا لاتجد معارضة من الطبقة الوسطى المصرية فحركة الصراع منذ ستينات القرن التاسع عشر حتى الاحتلال ، كانت بين السلطة الخديوية وبين الطبقة الوسطى ، وكانت ذكريات

الحكم العثمانى ، ثم استبداد محمد على وخلفائه ماثلة فى ذهن قيادات هذه الطبقة ومؤيديها ، ولذلك لم تكن هناك صعوبة كبيرة فى ترضية هذه الطبقة واشراكها فى السلطة على حساب السلطة الخديوية واتباعها من الاتراك والشراكسة والأرمن .

وهذا الموقف يشبه موقف التحالفات العربية التى قامت بين الثوار العرب والبريطانيين إبان الحرب العالمية الأولى حيث حارب جزء كبير منهم ضد الأتراك .

ومع ذلك فإن الطبقة الوسطى المصرية كانت تقف متحفزة للأجانب ، وبصفة خاصة الانجليز والفرنسيين الذين بدأ تدخلهم فى الحياة المصرية قبل الاحتلال بعقدين على الأقل عن طريق الديون التى كبلوا بها الخديو إسماعيل حيث فرضوا وجودا دائما لوزيرين فى كل وزارة مصرية بحجة رعاية الديون .

التاريخ المصرى الحديث معقد وشديد التركيب ، والأفكار والعواطف موزعة ومتناقضة ومتغيرة بمعدلات سريعة جدا بحيث لاينفع فيها الاختزال والتبسيط .

وعندما نجد مشاعر الابتهاج بالحرية عند رجل مثل قاسم أمين علينا أن نتأمل الوضع شيئا ما ، فقد ظل الرجل فى فرنسا أثناء الصدام بين الثورة العرابية

والخديو ثم بين الثورة وجيش الاحتلال . لقد سافر فى سنة ١٨٨١ ولم يعد إلى مصر إلا فى سنة ١٨٨٥ وكان قبل سفره قد اشتغل فى مكتب المحاماة الذى يديره مصطفى فهمى الذى أصبح فيما بعد رئيسا شبه دائم للوزراء بعد الاحتلال ، وهو نفسه صهر سعد زغلول ، وكان الرجل معاديا معاداة صريحة للخديو ، وكان يرى الاحتلال مرحلة مؤقتة وأن شيئا من الاصلاح من الممكن أن يتم فى ظله بما هو أفضل من الاستبداد الخديو كثيرا .. ويبدو هذا واضحا من استقراء مذكرات سعد زغلول والعبارات التى ذكرها فى الحديث عن رئيس الوزراء .

ومن حيث الحريات الفردية أبرز الاحتلال اعتماده على القانون ، وعلى الرغم من السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها المندوب السامى البريطانى ، فإنه كان محكوما بقواعد وقانون ، ولم تبلغ سلطته درجة التصفية الجسدية أو مصادرة الأموال . وكان المثقفون المصريون يلاحظون أن الحاكم البريطانى يراقب من حكومته المركزية ومن مجلسها النيابى وصحافتها ، وربما شعروا بحريتهم الشخصية بدرجة أفضل كثيرا مما كانت عليه أيام انفراد الاستبداد الخديوى بالسلطة .

ولكن ، وإلى جانب ذلك لم يستسلم هؤلاء المثقفون

للسلطة الأجنبية ، وكانوا يقاومون التسلط الاستعمارى وعلى الرغم من الصداقة التى كانت تربط سعد زغلول بكرومر فإنه كان دائم الصراع ضد الرغبات البريطانية المتجاوزة عن حقوق المصريين وكرامتهم ، وكان المستشار دنلوب نموذجا لهذا الصراع الذى لم يهدأ حتى قامت ثورة ١٩١٩ .

كان لدى المصريين إحساس بالحرية ، وكانوا يعيشونها إلى حد كبير خاصة فى فترة ماقبل الحرب العالمية الأولى ، وكانوا يعتقدون أنهم أهل للحرية وللتقدم ، وكان معسكر الاصلاح الذى يضم قاسم أمين يعمل من أجل إصلاح التعليم ومن أجل الدستور والحريات ، وكانت حرية المرأة من أهم وسائل الاصلاح التى عول عليها هذا المعسكر ، وكتابات قاسم أمين فى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » تعتقد أن تحرير المرأة هو الخطوة الاصلاحية الكبرى لأن هذا التحرير يتحقق بعدة أشياء ، أهمها استرداد المرأة لاحساسها بالقيمة وبحريتها المطلقة وتربيتها وتعليمها ورفع الحجاب عنها إذ إن هذا الحجاب ليس مجرد شىء مادى بل يضرب إلى عمق الاحساس بالسجن والقيد .

وكان قاسم أمين ـ مثله مثل زملائه ـ يفتخر بمصريته فى مواجهة الأجانب ، ويدافع عن الهوية المصرية

والثقافية العربية والاسلامية إلى درجة التعصب والمغالطة أحيانا ، لكنه فى أحيان أخرى وعندما يواجه شعبه يهاجم كل ما ورثه الشعب من عادات متخلفة وثقافة متدهورة بنفس الحماسة التى يرد بها على منتقدى الشعب المصرى من الأجانب .

ولذلك أوقع قاسم أمين مؤرخيه فى حيرة ، فقد أمرضه كتاب لرجل فرنسى يدعى داركور هاجم فيه المصريين ووصفهم بأسوأ الأوصاف .. عندما قرأه قاسم أمين سقط مريضا لمدة أسبوعين .. ولم يجد وسيلة للخروج من حالة الاحباط التى انتابته إلا أن يرد فى كتاب على هذا الرجل ، وكتب كتابه « المصريون » يدافع فيه عنهم بما فى ذلك الدفاع عن نظام الزواج والحجاب وغير هذا من القضايا التى تصدى لمهاجمتها بعد ذلك .

وقد مرت خمس سنوات بين كتابته كتاب « المصريين » وبين كتاب « تحرير المرأة » ثم مضى عام آخر ليظهر كتاب « المرأة الجديدة » .

فى الكتاب الأول والذى كتبه باللغة الفرنسية كان يدافع عن هويته الحضارية باعتباره مصريا ومسلما ومن الطبيعى أن يبرر كل عيب ويدافع عن كل خطأ .. أما حين ينشد الاصلاح ـ وبعيدا عن عاطفة الغضب التى انتابته ـ فالأمر يختلف ويصبح عليه أن ينظر إلى المشاكل بصورة

علمية وموضوعية لكى تتبين له سبل الاصلاح ويبدو مجتمعه بالصورة التى يتمناها .

وهذا أمر طبيعى يدركه فى نفسه كل كاتب يمر بمثل هذه الظروف . ومن المضحك أن يفسر ذلك بأن كتاب « تحرير المرأة » ليس من وضعه كله كما ذهب إلى ذلك الخصوم المعاصرون له الذين أرادوا أن يجروا فى المعركة الشيخ محمد عبده ، وكان أغلب هؤلاء الناقدين من حزب الخديو ومن غلاة المحافظين ومن اعداء فكر محمد عبده فأرادوا تجاوز قاسم أمين بنسبة الآراء المتعلقة بالحجاب وتعدد الزوجات ونظام الطلاق إلى الشيخ . ولكن أن يأتى أحد المعاصرين لنا وهو الدكتور محمد عمارة فيوافق على هذا الزعم فذلك أمر يحتاج إلى المراجعة . فالدكتور عمارة يظن أن المثقفين الذين لم يتعلموا فى الأزهر لايعرفون إلا القليل عن الشريعة الاسلامية وعن الفقه الاسلامى ، وهذا وهم صريح إذ أن دراسة القانون دراسة علمية تقتضى الالمام بمصدر أساسى من مصادر القانون إن لم يكن هو المصدر الأكثر أساسية من غيره ، وهو الشريعة الاسلامية . ورجل مثل قاسم أمين كان عندما كتب كتابه مستشارا فى المحاكم ، ويعتبر فى زمانه من كبار المثقفين الأكثر اطلاعا والأوسع علما ، ومن الطبيعى أن يكون المامه بمذاهب الفقهاء

الاسلاميين أوسع كثيرا من الدارسين فى الأزهر .

والرجل يعرف أصول البحث ويعرف كيف يجد المصادر وكيف يبحث فيها وكيف يلم بأطراف موضوعه وقد لايجاريه فى ذلك العلماء الأزهريون الذين لم يتدربوا التدريب الكافى على أصول البحث .

ومن يقرأ كتاب « تحرير المرأة » بل حتى كتاب « المصريون » يجد وحدة فى الأسلوب وفى طرق الاستدلال وأن الكتابة فى الموضوع لم تبدأ إلا بعد إلمام واسع بكل أبعاده . ونفس الاسلوب وطريقة العرض نجدها فى كتاب « المرأة الجديدة » .

وقارىء الكتب الثلاثة يلاحظ كيف تطور فكر قاسم أمين ، أو كيف واتته الجرأة بعد الصدمة الأولى التى أحدثها كتاب « تحرير المرأة » ليعبر عن آرائه بحرية أكثر فى كتاب « المرأة الجديدة » .

ومن يتابع دراسة شخصية قاسم أمين يدرك أنه من الصعب أن يضع اسمه على شىء كتبه شخص آخر حتى ولو كان محمد عبده . ولقد كانت ثقافة الرجل متميزة بالنسبة لأبناء عصره ، من النادر أن نقرأ للمعاصرين بحثا عصريا . كتحرير المرأة أو المرأة الجديدة ، فالكتابان تأسسا على معرفة واسعة بالتاريخ ، وبالمعرفة

الأنثروبولوجية حتى قبل أن تتوسع هذه الدراسات . وكان من الواضح أنه يعرف نظم الزواج المختلفة وليس من المستبعد أنه عرف كتاب أصل العائلة الذى كتبه فريدرك انجلز فهناك إشارات تجعل القارىء يعتقد ذلك . وهو علم بدراسات الاقتصاد وبفلسفة العلم وتاريخه وببواكير علم الاجتماع ، وكان تأثير المفكرين الكبار المعاصرين واردا من سان سيمون إلى أوجست كونت فضلا عن المفكرين الانجليز والألمان . ومن المؤكد أن دور قاسم أمين فى الحياة الفكرية والسياسية فى مصر كان سيكون أكبر مما قام به لو أن العمر امتد به ولكنه توفى قبل أن يتم الخامسة والأربعين .

وقد رشحه سعد زغلول فعلا ليكون وزيرا للحقانية ، ولكن تشكيل الوزارة لم يتم ، وقد روى سعد زغلول ذلك فى مذكراته .. وكانت الصداقة التى تربط بين الرجلين قوية جدا إلى الدرجة التى يمكن اعتبارها صداقة فريدة بين المعاصرين .

ويقول سعد زغلول أنه بهر بالرجل عندما كان يترافع أمامه ثم قامت بينهما صداقة ذات طابع خاص يكشف الاهداء الذى كتبه قاسم أمين لسعد زغلول فى كتاب « المرأة الجديدة » عن مدى عمقها وجمالها .

« إلى صديقى سعد زغلول .
فيك وجدت قلبا يحب وعقلا يفكر وإرادة تعمل .
أنت الذى مثلت إلىّ المودة فى اكمل أشكالها .
فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها .

من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت بين رجل وزوجته .

ذلك هو سر السعادة التى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء وطنى رجالا ونساء »

ولكن هذه الصداقة اهتزت شيئا ما ، والعجيب أن أول خلاف قام بين قاسم أمين وسعد زغلول كان حول القيمة الحقيقية لمصطفى كامل ، فعند وفاة زعيم الحزب الوطنى قامت كل مصر لتعبر عن حزنها وتمجد زعيمها الوطنى الأمر الذى لم يعجب سعد زغلول الذى كان مختلفا مع مصطفى كامل على طول الخط .. وهكذا كان موقف قاسم أمين الذى تعرض لحملة شعواء - غير موضوعية - من جريدة اللواء وبأمر من مصطفى كامل ..

ويقول سعد زغلول فى مذكراته عن هذه النقطة . « .. حتى أن قاسم بك أمين ، وهو من الذين لم يسلموا من لسان المتوفى ، فقد حمل على كتابه فى « تحرير المرأة »

حملة شعواء ، وانتقده أشد الانتقاد ـ لا اعتقادا بضرره ، ولكن تقربا من الجناب العالى ، ونفاقا لذوى الأفكار المتأخرة والمتعصبين من الأمة » ومن الذين كانوا لغاية وفاته يعتقدون أنه نصاب خداع ، ومنافق كذاب ـ قاسم بك أمين هذا حضر إلى يوم الجمعة ١٤ فبراير ، فى اليوم الرابع من الوفاة ، وكان أول مابدأ به : ماذا تقول فى وفاة مصطفى كامل ، إن اهتمام الناس بها لدليل عن تنبه عام ، وحياة فى الناس جديدة ، وهذه قيمة تستحق الاعجاب ، وأنه يعجب أيضا للطفى السيد الذى اقترح إقامة التمثال ولم يبق عنده الآن شك فى حياة الأمة ونهضتها .

فلما سمعت هذا اللسان من صاحبى ، استغربت أشد الاستغراب ، ولم أدر السر فى هذا الانقلاب ! فقلت : ولكننا نعلم أن الرجل ليس بشىء وأنه نصاب ! فقال : كذلك ، ولكن النتيجة التى ترتبت عليه تستحق الاعجاب . فقلت : إن هذا الشعور عظيم ، ولكن لم أفهم أن يكون لطفى هو أول مقترح لهذا التذكار ! فقال : إنه خير فعل ، وإن وجود مثل هذا الأمر يقوى هذا الشعور ويزيده ، فانتقلت إلى حديثى مع دنلوب وجورست فى الزيادات ، وقصصت عليه طرفا منه ، فلم أجده اهتم به كما ينبغى ، فتأسفت على كونى حكيت له ، ولات حين أسف . »

وفى هذه المناسبة يكتب سعد زغلول فى مذكراته

أيضاماينهى الزعم بمشاركة محمد عبده فى تأليف كتاب تحرير المرأة إذ كتب يقول :

« وبعد ذلك اجتمعت عليه « قاسم امين » فى بيته مع صدقى بيك ، وجرى ذكر هذه الوفاة . وكنت حكيت لصدقى ماكان من قاسم ، وحكى لى هو أيضا أنه تقابل مع قاسم وسمع منه ماسمعته تقريبا ، فناقشت قاسم مناقشة شديدة ، حاصلها انى استغرب من رئيس لجنة الجامعة ، ومن صاحب كتاب « تحرير المرأة » أن يكون له مثل هذا الرأى فى مصطفى كامل ، وأن يقول إنه موجد الحركة الوطنية فى مصر ! »

وكان سعد زغلول غاضبا أشد الغضب وهو يكتب هذه العبارات وماتلاها عن إعجاب قاسم أمين بمصطفى كامل . وفى عنفوان الغضب كان كفيلا أن يتذكر أنه لا فضل لقاسم أمين فى تأليف كتاب « تحرير المرأة » لأنه إن وجد شخص من المعاصرين يعرف كيف تم تأليف هذا الكتاب فسيكون سعد زغلول وحده أو فى مقدمة العارفين فقد كانا يتبادلان الأفكار ، ومن المؤكد أن مسودة الكتاب قرئت على سعد زغلول قبل أن تطبع ، فهناك إشارات فى أماكن متعددة إلى أن قاسم كان يقرأ على أصدقائه من كتاب « الكلمات » وهو كتاب آخر من تأليفه .

وهذا الخلاف يبين الفوارق بين الصديقين ، بين

الزعيم والسياسى وبين الكاتب الفنان ..

على أن سعد كتب هذه العبارات بعد أن ساءت العلاقة بين الصديقين ، فقد كان قاسم أمين مغرقا فى الديون ، ولا يعلم أحد سبب هذه الديون ، ويذكر سعد أنها بلغت أكثر من أربعين ألف جنيه وأنه لم يكن يملك هذا القدر من المال ليساعده . وكان قاسم قد طلب منه ذلك .

هل غضب قاسم .. ؟

وماهو سبب هذا الدين . ؟

فى العام السابق ـ ١٩٠٧ ـ حدثت أزمة اقتصادية كبرى متعلقة بالمضاربة على أسعار الأراضى أدت إلى افلاس الكثيرين .. هل كان قاسم أمين منهم .. ؟

لا أحد يعرف ولم يهتم أحد بعد بمعرفة السبب ..

ولكن عندما توفى قاسم أمين بشكل مفاجىء لم يصدق سعد زغلول أنها وفاة طبيعية .. وسأل الطبيب عن سبب الوفاة ..

يقول سعد فى مذكراته : « وقد تحدث من كانوا فى المكان (بيت قاسم) بالانتحار ، وسألت الدكتور عباس عن حقيقة الأمر فقال إنه موت طبيعى وقال إنما كان عاشقا .. فقلت له أعرف شيئا من ذلك .. فقال لاتقل .

ولكنى لم أفهم كون الحب يفضى إلى هذه الحالة . »

ونسب إلى مصطفى أمين أن معشوقة قاسم أمين كانت مطربة وعازفة قانون تدعى وسيلة .

ويقول سعد إنه « فهم أيضا أن زوجة قاسم أمين كانت « تغير » جدا من « وسيلة » وأنها كادت أن تحدث معه حدثا كبيرا . »

وكتب سعد زغلول عبارات مؤثرة جدا تستحق التسجيل فى مناسبة وفاة صديقه : « .. كنت لا أشعر بألم شديد فى نفسى ، وكثر ماتردد على خاطرى وما طرأ على الصحبة بيننا من أسباب الضعف ، وبت طول ليلى بين التأثر عليه تارة عندما أذكر صداقته ، والتأثر منه تارة عندما أذكر هجره لى ، خصوصا فى مواقع الصعاب ، وفكرة هذا الهجر ، الذى كثر فى الأيام الأخيرة وانصرافه عن مساعدتى ، وقت اشتداد الحاجة اليه ، أضعفت كثيرا تأثرى عليه ، وهذا لطف من الله ، لأنه لو حل به الموت ـ والصداقة فى قوتها ـ لفاضت روحى معه . »

وكل ماذكر من مواقع يشير إلى الطاقة العاطفية الهائلة التى يتمتع بها الرجل ، وأن هذه العاطفة سخرت للتقدم ولبناء ولحب الحقيقة . فهو لم يستطع أن يجارى صديقه

الأقرب إليه من أى إنسان آخر فى الهجوم على مصطفى كامل ، وكان قادرا على تعديل موقفه منه واكتشاف الجوانب الايجابية فيه ، ومغـزى حياتـه ، والأثر الموضوعى الذى تحقق بجهاده فى بعث فكرة الوطنية فى مصر .

ومن يتأمل كتابى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » يجد أن الحرية باعتبارها القيمة العليا هى غاية حركة العالم وحركة التاريخ ، وأن هذه الحركة تسير نحو التقدم ، وأن المستقبل أفضل من الماضى .. وأن كل نجاح يحققه المجتمع الانسانى يقربه من الحرية ، وأن كل تقدم هو نحو الحرية .. وأن تحرير المرأة هو حركة تقدم ولاتتحقق إلا عند درجة من المدنية والتحضر .. وكان قاسم أمين يعتقد أن المصريين ينهضون ويتقدمون .

ومع أن كتاب « تحرير المرأة » كتب بأسلوب علمى خالص ، فإنه ليس من الصعب على القارىء أن يدرك العاطفة الفياضة التى كانت وراء كل الدقة فى البحث والاستدلال ، وكل الجهد الذى بذل فى أن تكون حرية المرأة قضية علمية وليست مجرد رأى من الآراء أو موقفا من مواقف الأخلاق .

ويبدو أن النجاح الذى تحقق لهذا الكتاب يرجع

الفضل فيه إلى تلك الحيوية العظيمة التى كان يتمتع بها الرجل .. وطاقة العشق الباهرة للمرأة .. لروحها وإنسانيتها وجمال عواطفها قبل أى شىء آخر .

رقـم الإيـداع
٩٥ / ٨٢٣٤
I.S.B.N
977 - 07 - 0413 - X

الفهـــرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٣٦ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

هذا الكتاب الذى نقدمه للقارىء الكريم والذى ترجمه عن الفرنسية الاستاذ قاسم أمين «الحفيد» وفاءً لتراث جده قاسم أمين، يمثل نموذجا راقيا للحوار مع الآخر، والدفاع عن الثقافة الوطنية، ويعكس بصورة جلية ثقافة قاسم أمين، ويعبر عن مدى تعمقه فى فهم الثقافتين الاسلامية والأوروبية، وقدرته على صياغة فكر وطنى مستقل.

وفى هذا الكتاب رد جرىء على الافكار التى سجلها «الدوق داركور» عن المصريين، والذى ملأه بمزاعم باطلة، ومطاعن على الاسلام والمسلمين.

وقد استفز الكتاب قاسم أمين، فأصدر على الفور كتابه «المصريون» ردا على افتراءات «داركور الفرنسى» ونشره بالفرنسية عام ١٨٩٤ لتصل الرسالة إلى أصحابها، وليدفع عن مصر والإسلام ما حاول «داركور الفرنسى» إلصاقه بهما.

فكان هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن الصغير حجما، الكبير معنى ومغزى تعبيرا عن فكر قاسم أمين وعن رؤيته الثقافية والسياسية معا.

أهلاً بكم في عالمنا